

مقاربات علمية للمقاصد الشرعية

د.أحمد فؤاد باشا

كتاب المجلة العربية

231

مقاربات علمية للمقاصد الشرعية

دراسة تأصيلية لسوسيولوجيا العلم في الإسلام

المؤلف
د.أحمد فؤاد باشا

كتاب المجلة العربية
231

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض – طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) – شارع المنفلوطي
هاتف: 4778990 - 4779792 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓗ المجلة العربية، 1437 هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
باشا، احمد فؤاد
مقاربات علمية للمقاصد الشرعية / احمد فؤاد باشا.- الرياض، 1437 هـ
168ص؛ 14×21سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 231)
ردمك: 978-603-8168-45-5
1 - المقاصد الشرعية أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 251 1437/1465

رقم الإيداع: 1465 / 1437
ردمك: 978-603-8168-45-5

المحتويات

مقدمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين، والصَّلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي العربي الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالدين لازمة من لوازم المجتمعات البشرية، لكنه يسمو فوق الاحتياجات النوعية "البيولوجية"، لأن الإنسان يتجه من الدين إلى غاية لا تنحصر في النوع، بل تقرر مكانه في هذا الكون، أو في هذه الحياة. ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد – رحمه الله – في كتابه "الفلسفة القرآنية" إن الإنسان يتعلق من النوع بالحياة، ولكنه يتعلق من الدين بمعنى الحياة.

وقد تحدث علماء البيولوجيا الاجتماعية مؤَخراً عن "جينات الإيمان" المسؤولة عن درجة السمّو الذاتي روحيّاً لدى الإنسان المحكوم بطبيعته ذات الجينات الدينية التي لا مهرب منها. وهذا يدحض ما يقول به أصحاب التفسير الاجتماعي من أن الدين نشأ في بادئ الأمر وثنيّاً، وقام على المبالغة في تقديس الأشياء والأشخاص، ثم ارتقى شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى التصور الصحيح الذي يقوم على مبدأ التوحيد. أي أننا – فيما يزعمون – كائنات متديّنة لأننا كائنات اجتماعية. والأحرى، فيما نرى، أن نقول إننا أصبحنا كائنات اجتماعية لأننا متدينون بالطبيعة والفطرة النقية. فالدين فطرة وليس فكرة.

ومن يدرس تاريخ التدين وأنواع الديانات، وينظر في الدين كما صنعه البشر أو تخيّلوه، وكذلك من يتأمل مفهوم الألوهية كما تصوّرتها الشعوب، وكما تصوّرها الفلاسفة قديماً وحديثاً، سوف يدرك بسهولة عِظَم الفضل

الإلهـي على بني آدم بمجيء التعاليم الإلهيـة، في الرسالات السماوية، التي عرّفتهـم بجوهر الدين وهو الإيمان بالله واتباع هداه، وصحّحت لهم أصول المعرفة، وأعطتهم النظرة الكلية الشاملة لكل ما يحتاجون إليه، حتى يتسنّى لهم أن يتوصلوا إلى معرفة الحقائق الكبرى في الدين والكون والحياة.

والدين الصحيح الذي أوحى الله – تعالى – به للمصطفين من الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الصراط المستقيم هو دين واحد في أصله، وجوهره مبني على عقيدة التوحيد الخالص لله – تعالى – وحده لا شريك له، وردّ الأمور جميعها إليه. كما أن الدين الصحيح مفطور في كينونة الإنسان، أودعه الله فيه منذ خلقه، والمعرفة الفطرية للإنسان بخالقه ترجع إلى الميثاق أو العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في مرحلة الذرّ.

وكان الدين الخاتم هو الإسلام الحنيف – إسلام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة – الذي أنزله الله – تعالى – للناس كافة، ليعطيهم كل ما يعطيه الدين الذي لا غنى عنه من خير، ولا يحرمهم شيئاً من خيرات العلم والحضارة لمجاراة الزمن حيثما اتجه بهم مجراه. فالهدْي الإسلامي، فضلاً عن أنه رسالة ربانية للإنسان في كل زمان ومكان، جاء أيضاً ليصحب الإنسان في كل مراحل حياته، ويرسم له في هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل لتحقيق أمانة الاستخلاف بإعمار الحياة على الأرض وإشاعة الخير فيها والسلام عليها، حتى يستكمل حكمة الله من خلقه وخلقها، بعد أن سخر له كل ما في الكون من نعم ظاهرة وباطنة لينتفع بها، ويمجّد بانتفاعها ربّ العالمين. فالهدْي الإسلامي إذَنْ رسالة حضارية متكاملة ومتوازنة، تجسدت في عصور الازدهار الإسلامي الأولى، بتطبيق مبادئها وقيمها في واقع حياة البشر، وإقامة الحجة على الناس كافة بأنها ليست

مجـرد أفكار من ذلك النـوع الذي يأتي به الفلاسفـة والحكماء والمثاليون، بل هي رسالة حق وهداية، قوامها العلم والإيمان الموصولان بالخالق الواحد سبحانـه وتعالى: (اقرأ باسـم ربك الذي خلق) (سـورة العلق: 1)، والعلم الصحيـح الـذي يريـده الإسلام ويأمر بـه في أول ما نزل من آيـات القرآن الكـريم هو العلم النافع المحروس بالإيمان والداعي إليه. ولا يخفى على أي عاقل مغزى الخطاب الإلهـي الموجّه في القرآن الكريم للموقنين، ولأصحاب القلـوب التامة والنظـر السليم، وللذين يعلمون، ولقـوم يتفكرون، ويعقلون، ويفقهون آيات اللّه في الآفاق وفي الأنفس. فكان هذا الأساس نهضة المسلمين في انطلاقتهم الأولى. وأثمر التفاعل الإيجابي بين الإنسان المستخلف والكون المسخر أعظم حضارة إنسانية حققت انتشاراً ودواماً متلازمين لم تحققهما أي حضارة أخرى حتى اليوم.

لقـد أثمر الدمج بين القراءتـين في الكتاب المسطور (القـرآن) والكتاب المنظـور (الكون) عقليات متفتحة عرفت كيف تستنبط من الظواهر الكونية قوانينهـا، وكيف تستخرج مـن الأرض كنوزها وثرواتهـا، وكيف تستلهم من عـالم الغيب ما يفجر على طريق الخير والإيمـان طاقاتها. فقد صِيغت هذه العقليـات الإسلامية على نحو يجعلها قـادرة على إدراك حركة الغيب في كل مجريـات الواقع، وعلى تحقيق التوازن والانسجام بين العقل والنقل، والوعي والوجـدان، والروح والمـادة، وكل ماعدا ذلك من متقابـلات أتعبت أصحاب الفلسفات الوضعية وحيَّرتهم؛ لأنهم جعلوا منها ثنائيات ذات طبيعة تنابذيّة.

لكـنّ هـذا الأنمـوذج الإسلامي الحضـاري يفتقـد الآن إلـى دافع الحب والرغبـة الإيجابيـة في قلـوب المسلمـين، بعـد أن تكلَّسـت الأمـة، وتراجعت مؤسساتهـا الحضارية، في مقابـل الانبهار بنماذج وافدة لم تعد صالحة حتى

في المجتمعــات التي نشأت فيها واحتضنتهــا. ومن هنا أصبح خطاب التجديد الإسلامي الحضــاري ضرورة لابد منها لاستعادة دور الأمة الرائد في مسيرة الحضارة الإنسانيــة، ولمواجهة كل محاولات اجتياحها وهزيمتها من داخلها. ذلــك أن الحضارة الإسلامية قدّمت خير مثال لمــا ينبغي أن يكون عليه العلم العالمــي عندما انفتحت على الأمم المجاورة، وأثبتت أن المعرفة الإنسانية ذات مــوارد متعــددة بين شرقية وغربية، ويغــذي بعضها بعضاً، مــن دون أن تقام بينهــا حواجز منيعة لا تسمح باتصــال أو تبادل، فحافظت على شجرة العلوم والمعارف خضراء يانعة، وارفة الظل وغزيرة الثمار. ومن أسف أن نجد اليوم في المقابل من يسعى إلى التشكيك في علاقة الإسلام بالعلم، مستشهداً بحالة التخلف التي سادت معظــم المجتمعات الإسلامية، ومفتعلاً نوعاً من الصراع الــذي لا يقبــل المصالحة بين نظــام ميتافيزيقي قائم على الإيمــان والتسليم "بالغيبيات"، ونشاط مادي يتطلب الاستقراء التجريبي والاستدلال المنطقي.

من هنا نقول إن إيمانيات العلم أصبحت ضرورية لصياغة فلسفة جديدة ومتجددة بتجدد العلوم المختلفة وتقنياتها، تقوم على بحث الظاهرة العلمية من جوانب عــدة تسمى "علوم العلم" Sciences of Science، وتهدف إلى فهــم العالم برؤية إيمانية حضارية، انطلاقاً مــن مسلّمة التوحيد الخالص للخالــق الواحد، لأن أول التكاليف الشرعيــة ومقصدها الأسمى هي معرفة الله – تعالــى – والاستــدلال على وجوده من خــلال مخلوقاته، بالبحث عن آياتــه في الآفاق وفي الأنفس. ولهــذا فإن البُعد الإيماني والوجداني في الفكر الإنساني يفتح آفاقاً رحبة للبحــث والتأمل والتقصّي، وفق منهجية رشيدة، تلتزم تعاليم الإسلام، وتتمثل مقاصده وقيمه وغاياته، دون أن تعطل وظيفة العقل، أو تعوق حرية البحث والتفكير. كما أن البعد العلمي ودوره المحوري في

دعم مرتكزات الخطاب الإسلامــي المعاصر ضروري لتحقيق الأمن العلمي والتقني في عالمنا العربي والإسلامي.

وغيــاب هــذا الأمن يعني تعطيــل فريضة إسلامية واجبــة الأداء، مثلما أن غيــاب المدنية والشهود الحضاري يعني أن المجتمعات الإسلامية لا تؤدي أمانة الاستخلاف، ولا تحقق غايات الدين الذي تنتسب إليه.

مــن ناحية أخرى، يدلّنا استقراء الــدور الذي تؤديه نماذج الفكر العلمي والفلسفــي في تاريــخ العلــم والحضارة علــى أنها تحظى، أكــثر من غيرها، بالتحليــل والتطويــر المستمرّين، نظراً لما يترتب عليهــا من تغيير وتجديد في الــرؤى الكلّيــة، والمفاهيــم التصورية، والممارســات العملية على حــدٍّ سواء. و"سوسيولوجيــا العلم"، أو "علــم اجتماع العلم" Sociology of science، باعتباره أحد علوم العلم، مبحث حديث نسبياً، خرج من عباءة "سوسيولوجيا المعرفــة"، أو "علم اجتمــاع المعرفــة" Sociology of knowledge، وشغل حيــزاً كبيراً في المجــال العلمي منذ أوائل سبعينات القــرن العشرين، بهدف تعظيــم الإفــادة من المعارف العلميــة والتقنية المتنامية التــي ينتجها جماعة العلماء في ظل الظروف والبِنَى المجتمعية المصاحبة لإنتاجها.

وإن شئنــا تأصيلاً وتأسيســاً، أكثر دقة وموضوعيــة وأمانة، لعلم اجتماع العلــم، فإننــا نعود به إلى جذوره في المجتمع الإسلامــي الذي كان شاهدا على ميلاده، بعد أن هيأ الظروف التي سمحت للمصطلحات والأفكار والمفاهيم أن تنمو، وتترعرع، وتزدهر، وتؤتي أكلها أولاً لخدمة مجتمع أنتجها واحتضنها، ثم لتصبــح بعد ذلك فروعاً في شجرة المعرفة لتغذية الحضارة الإنسانية ولخدمة المجتمــع البشــري بأســره، وتعود مــرة ثانية في طورهــا المعاصر إلــى المجتمع الإسلامي لتخدم خصوصياته الدينية والثقافية والاجتماعية، وغيرها.

وهـذه الدراسـة المتواضعـة التـي بـين أيدينـا تؤصـل وتؤسـس لمبحث سوسيولوجيـا العلـم في عصـر الازدهـار الإسلامـي، وتقدم أيضـاً نماذج معاصـرة للدور الـذي يمكن أن يؤديـه العلم الحديث والتقنيـة المتقدمة في خدمة الدين وفقه المقاصد الشرعية. وهي – على هذا النحو – بمثابة دعوة مُلحَّة لأهل الاختصاص أن يسهموا في هذا المجال البكر بأبحاث ودراسات متأنيـة تهـدف إلى ترشيـد الخطاب الدعـوي المعاصر للتعريـف بالإسلام والدفاع عنه، عقيدةً وشريعة وحضارة وثقافة.

هذا، والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحمد فؤاد باشا
رمضان 1436هـ – يوليو 2015م

الفصل الأول

سوسيولوجيا العلم الإسلامي

تعنـي سوسيولوجيـا (علـم اجتمـاع) العلم عمومـاً، في أحـد جوانبها، الارتبـاط باحتياجـات المجتمع كلمـا أمكن، والتأثـر بسائر أنـواع النشاط الإنسـاني في نطاق الثقافة السائدة، وفي حـدود الإمكانات المتاحة؛ ومن ثمّ فـإن هذا الفرع مـن علوم العلم يهـدف أساساً إلى تحقيـق ارتباط المعرفة العلميـة باحتياجـات المجتمـع عـن طريـق الإفـادة القصوى مـن التلاحم والانسجـام بين فروع المعرفة المختلفة، وخاصة بـين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية والتكنولوجية. ذلك أن المعرفة بفروعها المختلفة مرتبطة بمصالح الإنسـان منذ أدرك أهميته على الأرض، وبـدأ في تشييد حضاراته المختلفة والانتقال معها من أمة إلى أخرى.

وقد جاء الإسلام الحنيف ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويحثهم علـى بناء المجتمـع الإسلامي على أساس الإيمان والرحمـة والتكافل والعدل والسمـوّ في المعامـلات واتبـاع التعاليم الإسلاميـة طبقاً لما جـاء في القرآن الكـريم وعلى لسان محمد الرسول الأمين عليه الصـلاة والسلام. ولقد كان مـن أهم عوامـل التقدم العلمي والتقني في ظل الحضـارة الإسلامية حرص المسلمـين على تنفيذ أحـكام الشريعة الإسلامية وتأديـة العبادات والمناسك على أكمل وجه يرضي الله ورسوله، خاصة أن الإسلام قد فرض على أتباعه أمـوراً تستلزم دراسة الكون ومعرفة الزمن والعد والحساب وتحديد مواقيت الصـلاة وأوائل الشهور (ظهور الهـلال) ومواعيد الأعيـاد وتأدية المناسك والعبـادات، وتحديـد اتجـاه القبلـة ومواقـع البلـدان، ومعرفة عـدد الأيام والأسابيـع والشهـور والأعوام، ومضـي الآجال المضروبة للديـون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس في معايشهم. بل إن الله سبحانـه وتعالى قسَّم المواريث والغنائم بين المنتفعين والمستحقين بالحق

والعـدل، وأنزل تفصيل ذلك في قرآنه الكريم على ما علمه من الحكمة فيما شـرع وفرض، ولو تُرك الأمر للبشـر لم يعلموا الأنفع لهم، فيضيعون الأموال على غير عدل وحكمة.

ففي سورة النسـاء وضح الله أحكام المواريث وأنزل آيات علم الفرائض في قولـه تعالـى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً، وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) (سورة النساء: 11، 12).

وفي قوله تعالى في الآية (176) التي هي خاتمة سورة النساء: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

كمـا ورد الترغيـب في تعلـم الفرائضـ في قـول رسوله اللّه عليـه الصلاة والسـلام : (تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم، وهو يُنسى، وهو أول شيء ينزع من أمتي).

وعـن توزيع الغنائم يقـول اللّه تعالى في الآية (41) مـن سورة الأنفال: (وَاعْلَمُـواْ أَنَّمَـا غَنِمْتُم مِّـن شَيْءٍ فَـأَنَّ لِلّهِ خُمُسَـهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِـذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَـى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقـد صنـف علماء المسلمـين مؤلفات مستقلـة، أو فصولاً مـن كتب يتم تخصيصهـا لشرح أمـور دينية وزيادة إيضاحها بأمثلـة تطبيقية، على نحو مـا نجد في باب "قسمـة الغرماء" الذي ذيّل به بهاء الديـن العاملي كتابه "خلاصـة الحسـاب"، وفي كتـاب "الجـبر والمقابلة" لمحمد بـن موسى الخوارزمـي الذي خصص منه جـزءاً لتطبيقات الجـبر في الحياة العملية يشتمـل على الكثير مـن الأمثلة المحلولة بطرق جبريـة ساعدت الناس على الاستفـادة منها والقياسـ عليها في مسائلهم المتعلقـة بالمعاملات والوصايا والمواريث.

وعـن هذا الجـزء التطبيقي تحدث الخوارزمي بأسلـوب تعليمي مبسط عـن الهدف من تأليـف كتابه فقـال: (.. وقد شجعني الإمـام المأمون أمير المؤمنـين على إيضاح مـا كان مستبهماً، وتسهيل مـا كان مستوعراً، فألفت من حسـاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً حاصراً للطيف الحساب وجليله لمـا يلزم الناس من الحاجة إليـه في مواريثهم ووصاياهـم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأراضي وكـرْي "تطهير" الأنهـار والهندسة وغير ذلك من وجوهـه وفنونه، مقدماً

لحسن النية فيه، راجياً أن ينزله أهل الأدب، بفضل ما استودعوا من نعم الله تبارك وتعالى وجليل آلائه وجميل بلائه، عندهم منزلته، وبالله توفيقي في هذا وفي غيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

وسوف نعرض مثالين يوضحان بعض أنواع المسائل التي تزخر بها مؤلفات المسلمين في علوم الرياضيات وتطبيقاتها.

المثال الأول من كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي

(رجل مات وترك أمه وامرأته وأخاه وأختيه لأبيه وأمه وأوصى لرجل بتسع ماله، فإن قياس ذلك أن تقيم فريضتهم، فتجدها من ثمانية وأربعين سهماً، فأنت تعلم أن كل "مال" نزعت تسعه بقيت ثمانية أتساعه، وأن الذي نزعت مثلُ ثمن ما أبقيت، فتزيد على الثمانية الأتساع ثمنها، وعلى الثمانية والأربعين مثل ثمنها ليتم مالك وهو ستة، فيكون ذلك أربعة وخمسين للموصَى له بالتسع، من ذلك ستة وهو تُسّع المال، وما بقي فهو ثمانية وأربعون بين الورثة على سهامهم). وبيان ذلك أن للزوجة الربع، وللأم السدس، ويُوزع ما بقي بين الأخ والأختين فيصيب الأخ (7 / 24) والأخت (7 / 48) مما ترك. وإذن لكي تخرج أنصبة الجميع صحيحة تُقسم التركة التي تخصهم إلى (48) قسماً، ولكن ذلك (8 / 9) التركة جميعها، وإذن التركة (54) قسماً، للموصَى له منها (6) والباقي (48) للورثة على سهامهم.

والمثال الثاني من كتاب "أساس القواعد في أصول الفوائد" لكمال الدين الفارسي:

(أجير أجرته في الشهر ثوب وعشرة دراهم، عمل ثلاثة أيام فاستحق الثوب، فبالقياس يستحق بعمله عُشّر الأجرة، وهو درهم وعُشّر الثوب. فلما

أخذ الثوب يكون تسعة أعشار الثوب يعدل درهماً فقيمته درهم وتُسّع).

يقــول الفارسي في حل هذه المسألة: (نقول نسبة الأيام إلى الشهر عُشر، وهي نسبة الثوب إلى مجموع الأجرة، فالثوب عُشر، والعشرة الدراهم تسعة أعشــار، فقيمة الثــوب درهم وتُسّع، ويقــرب منه التركيب، وهــو أن تفرض الأجــرة شيئاً أي (ســ)، فيكون المستحق بالعمل عُشر شيء أي (س / 10)، وهو الثــوب، والباقي معادلاً لتسعة أعشار الشيء، فالشيء (أي الأجرة س) أحد عشر وتُسّع).

وإذا انتقلنــا إلى علوم الفيزياء والفلك والأرصاد نجد أن علميّ التقاويم والميقــات يشكلان جزءاً أساسيّاً مــن المعرفة العلمية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحاجيات المجتمع الإسلامي.

أمــا التقــاويم فإنها تتخذ مــن وحــدات اليوم والشهــر والسنــة أساساً لوضعهــا، ويمكن إجمالها جميعاً في نوعين رئيسيين: أحدهما قمري أساسه دوران القمــر حــول الأرض، والآخــر شمســيّ أساســه دوران الأرض حول الشمس. ويُعتــبر التقويمان الهجري والميلادي خــير مثالين لهذين النوعين مــن التقــاويم. ودونما دخــول في تفاصيــل التقويمين، فــإن الاهتمام بطرق الرصــد الدقيــق لتعيين مــدارات القمر والكواكب قد زاد عــبر القرون حتى أصبــح بالإمــكان الآن تحديد لحظة ميــلاد الهلال بدقة كبــيرة عن طريق حــل المعــادلات الرياضية لمداره حول الأرض، ولمــدار الأرض الظاهري حول الشمس، وبلغت هذه الحسابــات من الدقة ما جعلها تصلح للتحديد المسبق لمواقع الكواكب والأقمار، وضمان الوصول الآمن إليها في الفضاء بعد رحلات قــد تستغرق سنين عديدة. وقد حفز ذلك أقطــاراً إسلامية للاستغناء كلية عــن رؤية الهــلال بالعين المجردة والاكتفــاء بالحسابات الفلكيــة أو الرصد

بواسطة أقمار اصطناعية، وحسب نتائج الرؤية أو الحساب أو الرصد، أو كل هذه الوسائل مجتمعة، في اليوم التاسع والعشرين من كل شهر هجري يتم الإعلان عن دخول الشهر الجديد في اليوم التالي أو الذي يليه.

وأما علم الميقات فقد برع فيه علماء المسلمين، وصنفوا العديد من الجداول لبيان الوقت منذ الشروق كدالة لارتفاع الشمس وتحديد أوقات الصلاة. وبالنسبة لاتجاه القبلة في مكان معين، فهو عبارة عن دالة مثلثية لخط العرض المحلي وخط عرض مكة المكرمة والفرق بين خطي طول الموقع ومكة. وكان اشتقاق معادلة اتجاه القبلة بدلالة هذه الكميات إحدى المسائل الأكثر تعقيداً في علم الفلك الكروي الإسلامي، وكانت أيضاً من أهم المسائل الدينية. وقد استطاع فلكيو الحضارة الإسلامية استنباط معادلات رياضية مكافئة للصيغة المستخدمة حاليّاً. بل إن منهم من اجتهد في تبسيط معرفة الوقت وتحري اتجاه القبلة بغير آلة، مثل شهاب الدين القليوبي (ت 1069هـ/ 1658م) صاحب رسالة "الهداية من الضلالة في معرفة الوقت والقبلة وما يتعلق بهما من غير آلة"، وفيها تحدث عن قيامه بأبحاث على محاريب مدافن مصر وغالب أقاليمها، حيث وجدها منحرفة عن سمت القبلة. وقد عثر الباحثون على آلة يعود تاريخها إلى حوالي عام 1100هـ/ 1700م وتحتوي على دائرة من الصغر قطرها 22.5 سم، رُسمت عليها خريطة للعالم الإسلامي، من الصين إلى الأندلس، وفي المركز مكة المكرمة وقد وُضعت البلدان الأخرى بحسب مواقعها من القبلة، حسب الاتجاه والمسافة. وقد زُوِّدت الخريطة المعدنية بعضادة (مسطرة الأسطرلاب) لتسهيل الاستعمال، وببوصلة مغناطيسية. وتعتبر هذه أول خريطة للقبلة توضح الاتجاهات والمسافات معاً، وذلك قبل أن تظهر الخريطة التي أعدها مؤرخ العلوم الألماني كارل شوي Carl Schoy عام 1920م[1].

---

(1) لطف الله قاري، الإنجازات العلمية للعرب والمسلمين في القرون المتأخرة، دار الفيصل الثقافية، الرياض 1427هـ- 2006م.

مـن ناحيـة أخرى، فطن علمـاء الحضـارة الإسلامية من أطبـاء وصيادلة بحكـمٍ عقيدتهـم الإسلامية إلـى أهمية العلـوم الطبية والصيدليـة باعتبارها علومـاً نافعة تهدف إلى صحة العقل والنفس والبدن، التي تعين على توفير كافة المقاصـد الرئيسيـة الخمس للشريعة الإسلاميـة كما يراها الفقهـاء. بل إنهم استحدثوا علوماً جديدة، فأسسوا لما يُعرف اليوم بـ "علم الطب البيئي" و "علم الطب الاجتماعي" و "علم الطب الوقائي"، وغيرها، بالإضافة إلى علوم الطب الأساسيـة كالتشريح والجراحة، وعلم الطـب السريري، وطب النساء والتوليد، وطب الأطفال، وطب العيون، وطب الفم والأسنان، والطب النفساني، وغيرها[1].

كذلـك أَوْلَـى المسلمـون أهمية خاصـة لعلـوم الأرض بقسميهـا: الجغرافيا والجيولوجيـا، وكتبـوا فيهـا قبـل أن ينقلـوا كتب غيرهـم إلى العربيـة، وكانوا مدفوعين في هذا بعدة أسباب يأتي في مقدمتها دعوة الإسلام الحنيف إلى طلب العلـم وعدم التواني في تحصيله مهما بعـدت مصادره، وإعمال العقل في كل ما خلـق الله وسخره لخدمـة الإنسان، بما في ذلك الأرض التـي يعيش عليها، فهي أصل وجوده، من ترابها ومائها خُلق، وعلى صدرها وخيراتها يعيش، وإليها يعود ويتلاشـى تراباً في ترابها، ومنها يُبعث تارة أخـرى، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَـا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَـا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (سورة طـه: 55)، وقال سبحانه: (قُـلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَـى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ) (سورة العنكبوت: 20)، وقال جـل وعلا: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (سورة الملـك: 15)، فمشى المسلمـون في مناكب الأرض لينظـروا عظمة الله في خلقه،

(1) د. أحمـد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، دراسات تأصيلية، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2007م.

ويدونوا مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويفيدوا منها، وكانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تجتمع على وحدة دين ولغة وثقافة، فنزع العلماء إلى دراستها عن طريق الرحلات والأسفار، وطوروا الأجهزة العلمية كالبوصلة والأسطرلاب، للتعرف على تضاريس الأقطار والبلدان لتوثيق الصلات بينها، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بالعدل بين سكانها جميعاً.

وتتجلى سوسيولوجية العلم الإسلامي أيضاً في جوانبه التقنية الإنمائية، وتطبيقاته العملية، ووسائله الفنية المستخدمة لتوفير كل ما هو ضروري لمعيشة الناس ورفاهيتهم وتطوير ظروف حياتهم.

ويكفي أن نشير هنا، على سبيل المثال لا الحصر، إلى "علم الحيل النافعة" الذي يمثل الجانب التقني المتقدم في علوم الحضارة الإسلامية. فبعد أن كانت غاية الشعوب القديمة من علم "الحيل" لا تتعدى في الأغلب استعماله في التأثير الديني والروحي على أتباع مذاهبهم، مثل استعمال التماثيل المتحركة أو الناطقة بواسطة الكهان، واستعمال الأرغن الموسيقي وغيره من الآلات المصوِّتة في المعابد، جاء الإسلام الحنيف وجعل الصلة بين العبد وربه بغير حاجة إلى وسائل وسيطة، أو خداع حسّي أو بصري، وأصبح التيسير على الإنسان باستعمال آلات متحركة (ميكانيكية) هو الهدف الإسلامي النبيل والجديد لتقنية الحيل النافعة التي نمت وتطورت على أيدي نفر من العلماء والتقنيين الأعلام، أمثال أبناء موسى بن شاكر، وبديع الزمان الحزري، وأحمد بن خلف المرادي، وتقي الدين الدمشقي، وغيرهم[1].

(1) راجع تفاصيل ذلك في المرجع السابق.

الفصل الثاني

فريضة الصلاة

قـال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّـلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (سورة طه: 132).

تبـين لنا هذه الآية الكريمة أن الصلاة أمر إلهي يشعر الإنسان في أدائه بقوة أعلى من قوّته تشده ويشعر في كنفها بالأمن والسكينة والحماية والقوة فيتغلـب بذلك على نفسه وتهـون كل آلامه ومشكلاته، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (يا بلال أقم الصلاة أَرِحْنا بها)، كما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام قوله: (وجُعلت قرة عيني في الصلاة) (أخرجه النسائي).

والصـلاة حافظة للصحـة دافعة عن الأذى مجلبة للـرزق؛ ولهذا دعت الآيـة الكريمة إلى الصبر والمداومة على أدائها، وقد قال تعالى: (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِـينَ) (سورة البقرة: 45)، وكان الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام إذا أصابـه خصاصـة نـادى أهله: (يا أهلاه صلّوا صلّوا)، وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة[1].

ولقد فرض الإسلام الصلاة وجعلها ركناً من أركانه، فهي عماد الدين؛ مـن أقامها فقد أقـام الدين، ومن هدمها فقد هـدم الدين، وهي تنهى عن الفحشـاء والمنكـر والبغـي، وتستوجب الطهـارة والوضوء قبـل أدائها. قال تعالـى في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُـمْ جُنُبـاً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُـم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِـطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَـمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيـداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُـمْ وَأَيْدِيكُـم مِّنْهُ مَـا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَـرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة المائدة: 6).

(1) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثاني، ص499.

وفي الطهارة بالغسل أو الوضوء قبل أداء الصلاة حكمة بالغة تضمن استمرار نظافة الأعضاء الظاهرة من الجسم وصيانتها من كثير من الأمراض، فضلاً عن تنشيط دورته الدموية والتنفسية. فغسل اليدين أمر وقائي هام لمنع انتشار الأمراض، وتخليل ما بين الأصابع في الكفين والقدمين يحفظ هذه الأجزاء من بعض الأمراض الجلدية، والمضمضة بإدارة الماء وتحريكه في الفم، والاستنشاق والاستنثار بإدخال الماء في الأنف وإخراجه منه بالنفس، يساعدان على التقليل من انتقال جراثيم الأمراض إلى داخل الجسم، كذلك ينشط الجهاز العصبي بغسل الوجه واليدين والقدمين؛ لأن نهايات أطراف الأعصاب في هذه المناطق تتنبّه فتساعد في زوال الفتور والخمول.

وتجدر الإشارة إلى أن طهارة المسلم بالغسل أو الوضوء جزء لا يتجزأ من دعوة الإسلام الشاملة إلى طهارة الجسد والروح والعناية بهما معاً، فضلاً عن التزام الطهارة والنظافة في الثياب والفراش والمنازل والبيئة بوجه عام، وكلها عوامل للوقاية من التلوث بالأمراض وللمحافظة على المظهر الإنساني الكريم. والنصوص المقدسة التي تحض على الطهارة والنظافة العامة كثيرة، منها قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (سورة البقرة: 222)، وقول الرسول عليه السلام: (اتقوا الملاعن الثلاث: التبول (أو البراز) في الموارد وقارعة الطريق والظل) (رواه أبو داود وأحمد ومسلم). واقترنت الطهارة والنظافة في الإسلام بالإيمان، واعتُبر التلوث نجاسة كريهة يجب على المسلمين التطهر منها؛ لأن (الطهور شطر الإيمان).

والمـاء الذي جعلـه اللّه – تعالى – أصـل الحياة ووسيلـة التطهر يصفه القرآن الكريم بقوله: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه وَأَنزَلْنَا مِـنَ السَّمَاء مَـاء طَهُـوراً) (سورة الفرقـان: 48). وقـد ورد لفظ "طهر" ومشتقاتـه في القـرآن الكـريم أكثر من ثلاثـين مرة لإيجاب طهـارة البدن والنفـس والبيئـة الإنسانيـة في الظاهر والباطـن، وفُرض الوضـوء للتطهر والنظافة قبل الصلاة. وجُعلت نظافة منطقتي القبل والدبر شرطاً أساسيّاً من شروط الطهارة وصحـة الصلاة. ذلك أن ما يخرج من السبيلين يحمل أعداداً هائلة من السموم والجراثيم التي إن بقي منها أثر في الجسم سببت لـه الكثير مـن المضار؛ ولهذا شـرع الإسلام غسل أماكن الخـروج وتنقيتها ممـا علق بها من أذى. وقد أوضحت دراسة علميـة أن الحرص على نظافة السبيلـين عامـل هـام في وقاية الجسـم من حـدوث السرطـان في الجهاز التناسلـي، ولهذا تقل أعداد المصابين بهـذا السرطان بين صفوف المسلمين الذين يحرصون على تقصي النظافة، ويكفي أن نعرف أن جراماً واحداً من الـبراز يحمل مئة ألف مليون جرثومة، ولنا أن نتخيل ما قد ينتج عن إهمال ذلك من ضرر وأذى بالغين.

ومـن سنن الفطـرة أيضـاً استنشاق المـاء، حيث يُعـدُّ المخاط ومـا شابهه مـن مفرزات تتراكم في نسيـج الأنف الداخلي وسطاً نموذجيّـاً لنمو الجراثيم والأحيـاء الدقيقة الأخرى التي قـد تسبب العديد من الالتهابات في حال تراكم المخـاط وعـدم إزالتـه وتنظيفـه. والاستنشاق عامـل مهم يخفف مـن تراكم المخـاط؛ وبالتالي فإنه يحدّ من حدوث تلـك الالتهابات. ولاستنشاق الماء أيضاً دور مهـم في إزالة ذرات الغبار التي قـد تعلق في تجويف الأنف الداخلي؛ ولهذا دور فاعل في تقليل تفاعلات الحساسية ونوبات الربو والتهابات الجهاز التنفسي

العلوي. وتتكفل عملية الاستنشاق أيضاً بترطيب جو الأنف الداخلي، وهذا يعني المحافظة على حيوية الأغشية المخاطية المبطنة لتجويف الأنف، وعلى العكس من ذلك فإن جفاف بيئة الأنف الداخلية يؤدي إلى تشققها، وينشأ عن ذلك مضاعفات مؤلمة. وقد وجد الباحثون أنه بعد المرة الثالثة للاستنشاق لا يوجد نمو ملاحظ للجراثيم ويصبح جوف الأنف خالياً منها تقريباً. ومع كل وضوء يتحقق المزيد من تناقص أعداد الجراثيم في الأنف.

ومن الأعمال العسيرة على القلب إيصال الدم إلى الوجه والكفين والرجل لبُعدها عنه. وعندما نتوضأ ينجذب الدم إلى هذه الأعضاء بتغير توازن الحرارة عند مس المياه الباردة لها. وهكذا يحصل بالوضوء التبريد والحيوية للأعصاب الموجودة في اليدين والقدمين وسائر الأعضاء المغسولة بماء الوضوء. وبارتباط هذه الأعصاب بالعصب الرئيسي في المخ يجد الإنسان النشاط بعد الوضوء، ويرتاح القلب أيضاً في مهمته، ويخف بذلك إمكانية حدوث القلق والتوتر. ولقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نتوضأ عند الغضب؛ لأن الوضوء يهدئ النفس والذهن والجسم ويحمي مرضى القلب من إصابة النوبة بسبب الخوف والغضب.

ويساعد الوضوء في شفاء دوار الرأس من الذين يعانون من ضغط الدم، فعند الوضوء وتبليل العين والأذن والأنف واللسان بالماء يشتد جريان الدم إلى أعصاب هذه الحواس وينشطها، ويعمل ذلك على ثبات درجة حرارة الجسم الداخلية عند 37م^0.

وفي حالة الطقس البارد يساعد الوضوء بالماء الدافئ على رفع درجة الحرارة في الجسم من 36م^0 إلى 38م^0، كما تزيد سرعة التنفس من 12 مرة إلى 29 مرة. وهذا يعني أن بدن الإنسان يتأثر سريعاً بالوضوء، سواء كان بالماء

الدافئ أيام البرودة أو بالماء البارد أيام الحر، ويبقى أثره طويلاً في الجسم.

أيضاً يصل تأثير الوضوء إلى الكليتين؛ فخلال جريان الدم من الأعضاء الباطنية إلى الجوارح الخارجية تمتص غدة العرق نفايات الدم منه، وتزيلها إلى الخارج بواسطة حفريات الشعر الموجودة في الجلد، وتختلط هذه الملوثات بماء الوضوء الذي ينظف الجسد منها، وفي العادة يجري هذا التنظيف بواسطة عمل الكلية بامتصاص النفايات من الدم وإبادتها مع البول أو عن طريق العرق؛ وبهذا يساعد الوضوء الكُلَى في عملها المستمر ويحميها بقدر ما من الأمراض الكلوية.

ويعمل الوضوء – كذلك – على حفظ جمال الإنسان، ويخفف تجفيف الجلد وتجعيده، ويعمل على الاحتفاظ برطوبة الجلد.

من ناحية أخرى، تقول المراجع الطبية الحديثة إن الجلد يعتبر مخزناً لنسبة عالية من البكتريا والفطريات، وتوجد معظم هذه الكائنات الدقيقة بكثرة على الوجه، وعلى البشرة، وعلى جذور الشعر، وفي الغدد الدهنية، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مئة ألف جرثومة على كل واحد سنتيمتر مربع من الجلد. وفي المناطق المكشوفة من الجلد يتراوح العدد من مليون إلى خمسة ملايين جرثومة لكل سنتيمتر مربع. وترتفع هذه النسبة في الأماكن المخبوءة الرطبة مثل المنطقة الإربية وتحت الإبطين، إلى عشرة ملايين جرثومة لكل سنتيمتر مربع. ونسبة الكائنات الدقيقة على الشعر كنسبتها على الجلد.

فالغسل منظف لجميع جلد الإنسان، والوضوء ينظف الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثاً بالجراثيم؛ لذا كان استعمال الماء أمراً مهمّاً؛ لأن هذه الجراثيم في تكاثر مستمر، والوضوء والغسل خير مزيل لها. ولو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة

منــه: فالفم والأنــف هما المدخــلان الرئيسيــان لأعضاء الجســم الداخلية، ونظافتهمــا من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب. ذلــك أن الأنــف والفم يكمــن فيهما ملايــين الميكروبــات والجراثيم مختلفة الأنواع ومتعددة الأشــكال، فمنها الميكروبات الكروية، ومنها السبحية، ومنها العنقودية، ومنها عصوية الشــكل، ومنها الميكروبات المرضية وغير المرضية. وتوجــد هــذه الميكروبات في حالــة تعايش سلمي مــع الإنسان طالمــا أنه يتمتع بمناعة قوية وصحة جيدة، وإذا ما اعتلّت صحته وقلّت مناعته، لأي سبب من الأسباب، أصبحت الفرصة سانحة أمام هذه الميكروبات لتغزو الجسم وتنتشر فيه مسببة له العديد من الأمراض. فالأنفلونزا ونزلات البرد تبدأ من الأنف، والحمــى الشوكيــة والنخاعية تبــدأ رحلتها من الأنف والحلــق إلى أن تصيب الأغشيــة المغلفة للمخ والنخاع الشوكي، وقلما ينجو منها الإنسان أو يسلم من بعض آثارها المتمثلة في حَوَل العينين، وصمم الأذن، والتخلف العقلي والذهني، وغــير ذلك. وهناك أيضاً – على سبيل المثــال لا الحصر- مرض الدفتريا أو الخنــاق الذي يبــدأ من الحلق أو الأنف، ويتميز بتكــون غشاء يسد الحنجرة، ويخنق الأطفال خنقاً. كما أن مرض "الأسكليروما" الذي ينتهي أيضاً بخنق المريضــ نتيجة انســداد الحنجرة أو الأنف من الداخــل، فإنه يبدأ من نشاط الميكروبــات المسببة له في الأنــف أو الحلق، وهكذا يمكن تصور فائدة الوضوء بالنسبــة لإنســان يغسل أنفه وفمه عــدة مرات في اليــوم فيطهرهما من هذه الجراثيم الكامنة والمتحفزة للانتشار، وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حيــث يقول: (إذا توضأت فمضمض). (رواه أبو داود والبيهقي)، ويقول عليه السلام: (إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه الماء ثم ليستنثر) (رواه الشيخان وأبــو داود)، وقــد دعــا الإمام علــي – رضي الله عنه – بوضــوء فتمضمض واستنشــق ونــثر بيده اليسرى، ففعــل ثلاثاً، ثم قال: (هذا طهــوُر نبي الله). (رواه أحمد والنسائي).

وتجـدر الإشـارة - في هذا الصـدد - إلى سنـة استعمـال السواك عند الوضـوء والصـلاة، فقـد رُوي عـن أبـي هريـرة – رضـي الله عنـه – أن رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم قـال: (لـولا أن أشق على أمتـي لأمرتهم بالسـواك عنـد كل وضـوء). (رواه مالـك والشافعي والبيهقـي والحاكم)، وعـن عائشـة – رضي الله عنها – أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: (السواك مطهـرة للفم مرضاة للرب) (رواه أحمـد والنسائي والترمذي)، وعنهـا أيضـاً أنهـا قالـت: (كان النبـي عليـه الصـلاة والسـلام يستـاك فيعطينـي السـواك لأغسلـه، فأبدأ بـه، فأستاك ثـم أغسله وأدفعـه إليه). (رواه أبـو داود والبيهقـي). والسـواك يحتـوي على مـادة "الفلورين" التي تمنـع تسوس الأسنان، ويحتوي علـى مادة قابضة للثة ممـا يقويها ويجعلها في حالـة صحية جيدة ويمنع حـدوث النزيف بها، ويحتوي على زيوت عطرية تكسـب الفم رائحة عطرية مميزة، ويحتوي على مواد كيماوية مزيلة لصفار الأسنـان. ويساعـد السـواك على تنظيـف ما يعلق بـين الأسنان مـن بقايا وفضلات الطعام وحماية الفم والأسنان من آثار تعفّنها.

واستعمـال السـواك المتكرر، وبخاصـة عند كل صلاة، كمـا هي السنّة، وقايـة حاسمـة مـن تسوس الأسنـان، وتنظيـف مستمـر، وإبـادة باكـرة للمستعمرات الجرثومية التي تتكون وتنمو بسرعة مذهلة، وتعشش بين ثنايا الأسنـان. وتشير دراسات علمية إلى تميُّـز السواك بنسب مرتفعة من مادة الثيوسيانـات، وهي مادة ذات تأثير مضاد للنخور السّنيّة، كما أن استعماله المنتظـم يحرّض عمليـة إفراز اللعاب مـن قِبل الغدد اللعابيـة الموجودة في الفـم، وهذا عامل مهـم في صيانة صحة الفم، والتخفيف من حدة ما يظهر فيه من أمراض.

كذلـك أثبتت دراسات أخرى جدوى استعمال السواك في علاج التهابات الحنجرة والوقاية منها، وما له من تأثير مهدئ للأعصاب، وتأثير مضاد لما قد يصيب الفم من أنواع داء السرطان المختلفة.

وبهذا يكون أثر السـواك مكملاً لأثر المضمضة في تخليص تجويف الفم مـن الأعداد الهائلة من الكائنات الحية المجهريـة التي تتراكم فيه، وتزداد الفائـدة المرجوّة بالدلـك الخفيف للثـة والأسنان باستخـدام أصابع اليد. ويكفـي أن نعلم أن عدد الجراثيم الموجود في سائل اللعاب يُقدر بحوالي مئة مليـون جرثومة في كل سنتيمتر مربع واحد، كما أن هناك أعداداً أخرى من الطفيليات والفطريات التي تتغذى على بقايا الطعام الموجودة بين الأسنان. والمضمضـة كفيلة بإنقاص تلك الأعداد بصـورة ملحوظة، خاصة إذا تكرر هـذا الفعل ثلاث مرات لكل وضـوء في الأوقات الخمسة للصلوات المفروضة في اليـوم والليلة. وحين يتآزر تأثير المضمضة وعمـل السواك تحدث عمليتا التنظيف والتطهير المطلوبتين.

أمـا اليدان والذراعان والوجه وشعـر الرأس والقدمان وأسفل الساقين، فهـي أجزاء مكشوفة من البدن وغسلها بالمـاء ينقيها من الكائنات الدقيقة ويزيلها عنها، ويختبئ عدد كبير من هذه الكائنات في الأخاديد بين الأصابع وعلـى عُقدهـا؛ لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلـم بتخليل أصابع اليدين والقدمـين وغسـل عُقدها، وذلك تعقّباً لما يمكـن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيـم والفطريات الضـارة، خاصة تلك التي تتخذ مـن ثنايا الجلد في هذه الأماكن، كهوفاً لها وأخاديد تنمو خلالها.

ولقـد شرع الإسلام على المسلم غسل جميع بدنه بالماء على وجه الإلزام في مواطـن معينة، لغسـل الجنابة والحيض والنفاس، ونـدب إليه في أكثر

مـن سبعة عشر موطناً أخـرى، كغسل الجمعة والإحـرام، بل قد حدد فترة زمنية يُكره تجاوزها بغير غسل، فقال عليه الصلاة والسلام: (حق الله على كل مسلـم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومـاً يغسل فيه رأسه وجسده) (رواه مسلم).

أمـا الصلاة ذاتهـا فإنها تمنـح مؤديها فوائـد عديدة. فأثنـاء الركوع يضغـط المرء على بطنه وأمعائه، وكذلـك أثناء السجود والنزول إليه. وهذا الضغط من شأنه أن ينبّه الحركة الدورية للأمعاء الدقيقة والغليظة فيعاون في أداء عملية الهضم وأداء فعل التبرز في وقته المعيّن بكيفيَّةٍ سليمة، ويساعد في منع الإمساك.

كذلـك يعمل الضغـط الواقع على الكبـد والقنوات المراريـة والصفراوية علـى زيادة إفراز العصارة الصفراوية وتيسير انتقالها من الحوصلة المرارية والقنوات الكبدية إلى الأمعاء الدقيقة "الإثنا عشر" للتعامل مع ما يقابلها من غذاء. وللمساعدة في هضم الدهون وتحويلها بواسطة أنزيم يُسمى "الليباز" إلى أحماض أمينية وجلسرول، وفي غياب هذا الإنزيم يتعذر هضم الغذاء.

وحركـة العضلات أثنـاء الركوع والسجـود والقيام تؤدي إلـى تقويتها، وبخاصة عضلات جدار البطن فتمنع ترهلها وتحول دون تشويه قوام الجسم وبدانته، كذلك تساعد حـركات الصلاة على تقوية المفاصل وتليين حركتها وانعكاس ذلك على نشاط الجسم لأداء الأعمال الأخرى بكفاءة أفضل.

وحين يركع المسلم أو يسجد في صلاته فإن معدل تدفق الدم إلى النصف العلـوي من الجسم، وبخاصة إلـى المخ والرأس، يـزداد. وتكرار هذا الفعل يجعل كميـة الدم وما يحمله من غذاء للخلايا أكـبر، فيزداد بالتالي معدل التنبّه والتركيز والقدرة على الإبداع والتفكير العميق.

وأهم مـا يميز الوضوء والصـلاة من الناحية الصحيـة أنهما يعتمدان علـى الحركة غير المجهدة والموزعة بشـكل منتظم على كل أوقات اليوم ليلاً ونهاراً، وهي لا تقل في أهميتها عن تلك التمارين الرياضية البدنية المعروفة بـ"التماريـن السويدية"، حيث يتم تحريك جميع مفاصل الجسم وعضلاته القابضـة والباسطـة، علماً بأن عدد ركعات الفروض 17 ركعة، وتصبح مع سننها 36 ركعة. فإذا اعتبرنا – على سبيل المثال – انخفاض الرأس للأسفل أثنـاء السجود وما يحدثـه من احتقان دموي في الأوعية، ثـم ارتفاع الرأس للأعلـى فجأة وما يحدثه مـن انخفاض في الضغط داخـل الأوعية، وتكرار هـذه الحركـة في كل ركعة 6 مرات ما بين ركوع وسجود بما يبلغ 216 مرة في اليـوم - فإن الأوعية الدماغيـة تزداد مرونتها وتقـوى جدرانها وعضلاتها بفضـل تلك الحـركات المنتظمـة التي تجعلها عنـد السجـود أو الركوع، ثم القيام منهما، بين انقباض وارتخاء. بل إن الإسلام يحث أتباعه على اعتياد المساجـد لأداء الصلاة، والمشـي إلى المسجد رياضة خفيفـة محبَّبة تنشط الجسم كله، وخاصة جهازه الدوري والتنفسي والمفاصل والعضلات.

وسمـو الجـو الروحـي الذي يتمتـع به المصلي يـؤدي إلى راحـة النفس وهدوئهـا، فيتم تمثيل الجسم للغذاء بكفاءة أعلى وتنتفي الأسباب النفسية والعصبية لحدوث بعض الأمراض المتعلقة بالهضم مثل قرحة المعدة والاثنا عشر والقولون العصبي واضطراب الهضم العصبي وصعوبة البلع العصبي وفقدان الشهية العصبي، وغير هذا من أمراض القلب والضغط والأمراض العصبية والنفسية. وقد أكدت تجارب العلماء وجود علاقة وثيقة بين إتمام هضم الغذاء في جو نفسي طيب وبين كفاءة سير عمليات الهضم.

علـى أنه تجدر الإشارة إلى أن الصلاة في القـرآن عبادة يجب الامتثال

بهـا لأمر الخالـق العظيم، ولا يجـوز تعليقها بما يكشفه لنـا العلم، فمجال العلم مهما ارتقى محدود ولا يمكن له أن يستوعب كامل حكمة الله ﴿ كل ما يفرضــه علــى عباده أو يروّض به خلْقه، ولكن هــذا لا يمنع من التحدث عما يكشف عنه العلم من فوائد للفروض والتوجيهات الإلهية.

(رَبِّ اجْعَلْنِــي مُقِيــمَ الصَّــلاَةِ وَمِــن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَــا وَتَقَبَّلْ دُعَــاء) (سورة إبراهيم: 40).

وإذا انتقلنا إلى لطيفة أخرى من لطائف العلم والإيمان تتعلق بصلاة الفجر على وجه الخصوص، فإننا نستهدي بقوله تعالى: (أَقِم الصَّلاَةَ لِدُلُوك الشَّمْسِ إِلَــى غَسَقِ اللَّيْــلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْــرِ كَانَ مَشْهُوداً) (سورة الإسراء: 78)، حيث تذكر كتب التفسير أن قرآن الفجر في هذه الآية الكريمة هي صلاة الفجر؛ وسُمِّيت قرآناً لأن من أركانها قراءة القرآن، كما سُمِّيت مشهودة لبيان فضلهـا وعظيم شأنها وكبير أجرهـا، فهي في وقت يصعب على الإنسان القيام فيه من نومه الهنــيء ودفء فراشه المريح، ولكن المؤمنين تتجافى جنوبهم عن المضاجع اللينة ويستيقظون في أعماق الليل متقربين لخالقهم بالدعاء والصلاة خوفـاً وطمعاً، كما وصفهم الله تعالــى في قوله: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُــونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (سورة السجدة: 16)، وفي قولــه: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً) (سورة الفرقان: 64)، وكذلك في قولــه ترغيباً في التهجد: (إِنَّ نَاشِئَــةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئــاً وَأَقْوَمُ قِيلاً) (سورة المزمل: 6). وناشئة الليل هي القيام بعد النوم.

وسُمِّيت صلاة الفجر مشهودة كذلك؛ لأنها في وقت يكون الإنسان فيه على أحســن حــال، بعد نوم الليل وراحة بدنه وعقلــه وأعصابه وسمعه وبصره من متاعــب النهار ومشاغل الحيــاة. فالإنسان يستعيد في وقت النوم قواه البدنية

والعقلية والعصبية، فيصفو عقله وتهدأ أعصابه وتتجدد خلايا بدنه، فيتجدد نشاطه وحيويته بعدما كُفَّ لفترة مناسبة عن الحركة والتفكير وقضى الليل في هدوء وسكون. ولاشك في أن الذهن المستريح يكون أكثر استعداداً للفهم والخشوع من الذهن المرهق بالعمل، وليس من المعقول أن تكون حال العقل والجسم قبل النوم كحالها بعد استغراقهما في نوم عميق طويل.

من ناحية أخرى، تحث آية (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) على تنظيم الحياة الإسلامية بالمحافظة على الوقت والتبكير في بدء العمل بصدر منشرح وعزم مكتمل، وإنه لمن الغفلة أن يألف أقوام النوم حتى الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يَغُطُّون في نومهم على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون في سعيهم من أجل معاشهم ورزقهم، وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (اللهم بارك لأمتي في بكورهم) (أخرجه أحمد في المسند 3/ 416).

ويأتي دور العلم الحديث ليلقي بعض الضوء على الإعجاز القرآني في دعوته إلى الاستيقاظ المبكر فيبين جانباً من الفوائد التي يجنيها الإنسان بيقظة الفجر، ويكشف عن المزيد من معنى آية كريمة، حجبه أولاً ذلك النطاق العلمي الضئيل المعروف عند عرب الجاهلية. وما تكذيب الكفار للقرآن وقت نزوله إلا لأنهم اعتزوا بما علموا. وما أنفه علمهم آنذاك، فعدُّوا كذباً كل ما لم يتفق مع علمهم، فشهَّر القرآن الكريم بجهلهم وعاب ذلك عليهم في قوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (سورة يونس: 39)، ويمكن إجمال رأي العلم في بيان فوائد يقظة الفجر وبركة البكور فيما يأتي:

1 – تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون في الجو عند الفجر، وتقل هذه النسبة تدريجيّاً حتى تضمحل عند طلوع الشمس. ولهذا الغاز – في حدود النسبة

الطبيعيــة المقدرة له – تأثير مفيد للجهاز العصبي، ومنشط للعمل الفكري والعضلي، بحيث يجعــل الإنسان في الصباح الباكر في ذروة نشاطه الفكري والعضلــي، ولعــل الإنسان قد استطــاع بخبرته العمليــة أن يستشعر نشوة لا مثيــل لهــا في أية ساعة مــن ساعات النهــار أو الليل عندمــا يستنشق نسيم الفجر العليل.

2 – تكون نسبة الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس أكبر ما يمكــن عند الشروق، وهي الأشعة التي تحث الجلد على تكوين فيتامين "د" الــلازم لنمو العظــام وتقويتها، والاستيقــاظ الباكر يتيــح للإنسان الفائدة القصــوى من هذه الأشعة بالاستعــداد لاستقبالها، ناهيك عن منظر شروق الشمســ ذاته وما يبعثه لون الأشعة المائل إلى الحمرة من إحساس جميل في النفس.

3 – تبــين أن النــوم على وتيرة واحــدة لساعات طويلة يعرضــ الإنسان للإصابــة بأمراض القلب؛ لأن النوم ما هو إلا حالة سكون يؤدي استمرارها طويــلاً إلى ترسيب المواد الدهنية على جــدران الأوعية الشريانية، ولا شك أن الاستيقــاظ الباكر وقطــع النوم الطويل فيه وقايــة للإنسان من أمراض أوعية القلب.

4 – مــن الثابــت علميّــاً أن أعلى نسبــة للكورتيزون في الــدم تكون وقت الصبــاح، وأقل نسبة تكون في المساء، ومن المعروف أن الكورتيزون يزيد من فعاليات الجسم وينشط أجهزته لعمليات التمثيل الغذائي بوجه عام.

وإذا مــا أضفنــا هذه الفوائد إلــى تلك التي يجنيها المسلــم من الوضوء والصلاة نجد أن حكمة الإسلام لا مثيل لها في دعوة الإنسان إلى الاستيقاظ مبكــراً واستقبال اليوم الجديــد بجد ونشاط حيث تكــون إمكاناته الذهنية

والنفسيــة والعضلية على أعلى مستوى في الساعـات الأولى من النهار؛ مما يـؤدي إلــى مضاعفة الإنتـاج في عالم ملـؤه الرضا والصفـاء والسرور. ولو تصورنـا أن ذلـك الالتزام بتعاليـم الإسلام أخـذ طابعاً جماعيّـاً فسيغدو المجتمع المسلم مجتمعاً مميَّزاً فريداً تدب فيه الحياة منذ البكور.

أمـا بالنسبـة لمواقيـت الصـلاة وتحـري اتجاه القبلـة فنجـد التكليف الشرعـي واضحاً في قوله تعالى: (فَـإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتـاً) (سورة النساء: 103)، وفي قوله سبحانه: (قَدْ نَرَى تَقَلُّـبَ وَجْهِـكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَـوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ وَحَيْثُ مَـا كُنتُمْ فَوَلُّـواْ وُجُوهَكُـمْ شَطْـرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُـواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُـونَ أَنَّـهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَـا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُـونَ) (سورة البقرة: 144)، وفي قولـه جل جلاله: (وَمِنْ حَيْـثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّـا تَعْمَلُونَ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (سورة البقرة: 149، 150).

وقد أسس المسلمون الأوائل "علم الميقات" لخدمة هذا التكليف الشرعي بتحديد اتجاه القبلة ومواقيت الصلاة من الليل والنهار تحديداً دقيقاً. ومع بدايـة القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ظهر نظام "المؤقت" كفلكـي محترف مسؤول بالدرجـة الأولى عن تنظيم أوقـات الصلاة. وكان أحـد الأغراض الرئيسية من اختراع الساعات المائية أن تساعد على إعلان الأوقـات المحدِّدة للصـلاة عندما تكون السمـاء مظلمة أو ملبـدة بالغيوم،

فقـد كان الميقات الفلكي داخـلاً في بنية الساعات المائية؛ نظراً لأن سرعات تشغيلهـا كانت تعدل يوميّاً للتوافق مع طولي الليل والنهار. ولا تزال الأجزاء الخارجية لهذا النوع من الساعات، المصممة في القرن الرابع عشر الميلادي، موجـودة في إحدى الغرف العليا في مسجـد القرويين بمدينة فاس بالمغرب، وكان يُعلـن عن أوقات الصلاة أثناء النهـار برفع علم على قمة المئذنة، وفي أثناء الليل بإشعال النار في موقد عند قمة المئذنة لكي يعلم الموجودون خارج المدينة أوقات الصلاة.

مـن ناحيـة أخرى، سبـق ابن يونس المصـري إلى وصـف طريقة دقيقة لتحديـد اتجاه القبلة وجدهـا "كارل شوي" في أوائل القـرن العشرين أنها لافتـة للنظر من حيث إنها تعطينا بلغة العصـر تعريفاً لمعادلة جيب الزاوية وجيب التمام في حساب المثلثات الكروية.

وفي العصـر الحاضر توجـد آلات ذكية لتحديد المواقيـت واتجاه القبلة والمواقع المختلفة من أي مكان في العالم.

الفصل الثالث

فريضة الصيام

قـال تعالى: (يَـا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِيـنَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ، أَيَّاماً مَّعْدُودَات فَمَـن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَـى سَفَـر فَعِدَّةٌ مِّـنْ أَيَّام أُخَـرَ وَعَلَى الَّذِيـنَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَـامُ مِسْكِين فَمَـن تَطَـوَّعَ خَـيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّـهُ وَأَن تَصُومُـواْ خَيْرٌ لَّكُـمْ إِن كُنتُـمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: 183، 184)، وقال عليه الصلاة والسلام: (صوموا تصحّوا). (رواه الطبراني).

بمثـل هذه النصوص المقدسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تقـررت فريضـة الصوم كركن مـن أركان الإسلام، وهي فضـلاً عن كونها فريضة تعبدية واجبة على المسلم يؤديها طاعة لأمر ربه، إلا أنه من الواجب عليه أيضاً أن يبحث في الحكمة من وراء هذا الصيام والفائدة التي يجنيها منـه.. وهنا تؤدي العلوم الكونية المختلفة دوراً هامّاً في تعريف المسلم ببعض هذه الفوائد التي تشمل جميع جوانب حياته، وخاصة الطبية منها.

ولقـد بـدأ المهتمـون بالطب، فـرادى وهيئـات، مشـوار البحث عـن آثار الصـوم على صحة الإنسـان فعرفوا بادئ ذي بدء أن الإنسان ليس هو الكائن الوحيـد الذي يصوم، بل إن جميع الكائنـات الحية في الكون تمر بفترة صوم اختيـاري مهما توافر لها الغـذاء في البيئة من حولها، وقـد لاحظ العلماء أن هـذه المخلوقات تخرج من فترة الصيام هذه أكثر نشاطاً وحيوية، وأن أكثرها بعـد الصوم يزداد نمـوّاً وصحة، وقد حاول الباحثـون تفسير ذلك علميّاً فلم يتوصلوا إلى أكثر من أن هذه المخلوقات التي تعيش على الفطرة يُعتبر صومها ظاهرة فسيولوجية، أي مرتبطة بوظائف الأعضاء وعوامل البيئة، واعتبروها ظاهرة عامة لكل الكائنات الحية وأطلقوا عليها اسم "ظاهرة البيات".

أما بالنسبة للإنسان الـذي يتصرف بعقله أكثر مما يتصرف بغرائزه، فقد اكتشف العلماء من آثاره التاريخية أنه عرف الصوم في العصور القديمة بفطرتـه وغريزته قبـل أن تنزل الكتب السماوية؛ وهـذا يؤكد أن المخلوقات تلجـأ إلى الصـوم بالفطـرة لأنها تجد فيه فوائـد لا تستطيـع أن تحددها، ويهديهـا الخالـق العليم إليه لضـرورة فسيولوجية لازمـة لاستمرار الحياة والمحافظـة عليها، تماماً مثل الأكل والشرب والتنفس والحركة والنوم؛ ومن ثم فإن الابتعاد عن الصوم يؤثر سلبيّاً على الصحة.

ومـن أول الفوائـد الحيويـة للصـوم مـا نجـده في تنشيـط التفاعلات الكيميائيـة والبيولوجية التي تحـدث داخل الجسم عند الجـوع أو الصوم. ذلك أن جسم الكائن الحي في حالة الصيام يبدأ باستهلاك المواد الغذائية المخزونـة فيه، وعندما ينتهي المخـزون من الغذاء تبـدأ البروتينات المكوِّنة لأعضـاء الجسم المختلفـة، وأولها الكبد والعضـلات، بالتحرك والتخلخل. فـإذا كان الصوم لمدة مناسبة محدودة وغـير زائدة عن الحد المعقول، كما هـو الحال في صوم رمضان، فإن هذا التخلخل في بروتينات أعضاء الجسم يجعلهـا أكثر قابليـة للتجدد والنشـاط واستعادة شبابهـا وحيويتها.. وهذا يعنـي أن الصوم يعمل على تجديد وتنشيـط أنسجة الجسم وخاصة أنسجة الغـدد التـي تسيطر على النمـو والحركة وعمليـات الهضم والبنـاء؛ الأمر الـذي يفسر لنـا ظاهرة النشـاط الزائد والنمو السريع الـذي يُلاحظ على الحيوانـات والطيور والديدان بعد فـترة الصوم أو "البيـات" كما يسمّيها علماء الأحياء. وهذه الحقيقة هي عكس ما يتصوره الجهلاء من الناس من أن الصـوم يؤدي إلى الهـزال أو الضعف أو فقر الدم. وهذا طبعاً بشرط أن يكون الصوم في حدود المعقول كما نظمه الإسلام.

وحديثنا عن العلاقة بين الصيام وفوائده الحيوية للصحة العامة يكتسب أهمية خاصة في ضوء اهتمام الباحثين والعلماء بموضوع أسرار الحيوية والشباب وتجنب مشاكل الشيخوخة، حيث يكتشف العلم كل يوم ما يؤكد حكمة التعاليم الإسلامية من توفير الحياة التي يحبها المسلم كهبة من الله سبحانه وتعالى، ويحب ما فيها من الطيبات، ويحب أن يؤدي أمانة الاستخلاف على خير وجه وهو في أتم صحة وعافية إلى أن يعبرها إلى الآخرة التي هي خير وأبقى؛ ومن ثم فإن المسلم مطالب بالأخذ بالأسباب لأنها سنن الله في خلقه، مع تسليمه وتفويضه لله وإيمانه بالقدر والأجل المحدد. ومن أسباب المحافظة على الصحة العامة التزام النظام الإسلامي في الصوم والغذاء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا). (رواه الترمذي). وقال أيضاً: (اسألوا الله العفو والعافية فإنه ما أوتي أحد بعد يقين خيراً من معافاة). (رواه النسائي).

وعن فريضة صوم رمضان يقول الله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنزِلَ فيه الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة: 185).

تبين هذه الآية الكريمة أن الإسلام فرض الصوم على المسلمين طوال شهر رمضان المعظم، وبيَّنت السنة النبوية المطهرة كيفية هذا الصيام وآدابه وأحكامه وغايته. أما أبحاث العلماء على مر العصور فقد كشفت عن حقائق هامة تجلّي الحكمة الإلهية من وراء تشريع الصيام، لا ليكون فرضاً

تعبديّاً فقــط، ولكن باعتباره أيضاً من ضــرورات الإبقاء على حياة الأحياء وسلامتهم. فالصوم مــن وجهة النظر الصحية وسيلة لتطهير الجسم مما يحتمــل أن يكون به من زيــادات في السموم الضارة، أو ما يكون به من غذاء لا لــزوم له؛ ولهذا نجد الحديث عــن الصوم في الموسوعات الصحية يندرج تحت باب العلاج بالغذاء.

ولقــد أثبتت التجارب العلمية أن الصيــام مفيد لعلاج اضطرابات الأمعاء المزمنــة والمصحوبة بتخمّر، ويفيد في حالات زيــادة الضغط والبول السكري. ذلــك أن كميــة السكر في الدم تقل بالصــوم إلى أدنى المعــدلات، وهذا يعطي غــدة البنكرياس فرصة للراحة ويجدد كفاءتهــا ونشاطها مع غيرها من باقي أجزاء الجهــاز الهضمي وملحقاته كالكبد والغدد اللعابية والحوصلة المرارية. ومــن المعــروف أن البنكرياس يفرز مــادة الأنسولين التي تؤثــر على السكر في الــدم فتحوله إلى مــواد نشوية ودهنية تترسب وتُخــزن في الأنسجة، ولكن إذا زاد الطعــام عن قــدرة البنكرياس في إفراز الأنسولين فــإن هذه الغدة تُصاب بالإرهــاق والإعياء ثم تعجز أخــيراً عن القيام بوظيفتهــا، فيتراكم السكر في الــدم وتزيد معدلاته بالتدريج سنة بعد سنة حتى يظهر مرض السكر، ويعاني المريضــ من مشاكله ومضاعفاته الخطــيرة. وخير حماية للبنكرياس من هذا الإرهــاق أو العجز الوظيفي هــو الصوم المعتدل، هذا فضلاً عن أهمية الصوم كعامــل مساعد لنقصــ وزن الجسم عند مرضى السكــر. ففي خلال ساعات قليلة من فترة الصوم الإسلامي التي تتراوح بين 12 و 17 ساعة حسب فصول السنــة يهبط معدل سكــر الدم ليبلغ حوالي 100 ميليجــرام لكل (100سم3) مــن الدم، أو أقل من هذا المستــوى بقليل، ومعنى هذا أن يتنبه الجسم ليبحث عن مصدر آخر للطاقة فيستمده من مخزون النشا الحيواني في الكبد ويحوله

إلــى سكر الــدم (الجلوكوز)، وهو مخــزون يكفي الجسم حــوالي 6 ساعات، وبعــد أن ينفد مخزون الكبــد يلجأ الجسم إلى الدهــون الموجودة تحت الجلد وفي الأعضــاء ليهدمها ويتمثلها ويحصل علــى الطاقة اللازمة بعد هدم بعض الأنسجة والخلايــا ذات الأهمية الأقل، وبخاصة المحتقنــة والملتهبة والمتقيحة فيتخلص الجسم منها ومــن سمومها مع إذابة الرواسب الكلية بتلك المناطق، ويتبع ذلك بناء أنسجة جديدة مكان ما تهدّم؛ ومن ثم تتجدد حيوية الأعضاء، ويستعيد الجسم نشاطه، وتواصل أجهزته المختلفة أداء وظائفها بكفاءة عالية.

ومن الجدير بالذكــر أن أغلب المدارس الطبية الحديثة المعنية بالبحث في طــول عمر الإنسان وتجديــد شبابه وحيويته تضع قواعــد صحية معينة تعتمد علــى تبسيط الغذاء والصوم لفترات محــدودة. من ذلك ما توصي به مدرسة "جابلــورد هاوزر" الأمريكي المعاصر صاحــب كتاب "عش مئة عام"، من أن أكل كميــات غذائيــة أكثر مما ينبغي يــؤدي إلى حدوث تسمــم بطيء وضعف تدريجــي لكثرة النفايــات في الجسم والــدم؛ ومن ثم فإنها تدعــو إلى تطبيق نظام علاجي أسمته "النظافة الداخلية" يعتمد على صوم المريض لمدة سبعة أيام عن كل أنواع الغذاء التقليدية، ويعتمد فقط على كميات قليلة من الزبادي والعسل الأبيض أو الأسود وشوربة الخضار وسلاطة الخضار وعصير الفواكه والسوائــل الدافئــة كالتيليو واليانســون وغيرهما، وينصــح الطبيب الأمريكي مرضــاه بتطبيق هــذا النظام العلاجي مرتين في كل عــام في الربيع والخريف ليتلافــى الجسم الكثير من المتاعب، وخاصة في فــترة الشيخوخة، وهو يقول: (إننــي أعتقــد باختصار أن عمــر الإنسان هو عمر نظامــه الغذائي)، ويزداد العلماء يوماً بعد يوم اقتناعاً بصحة هذه النظرية[1].

(1) مــن أطــرف التجارب التي أجريــت حديثاً ما قام به البروفسور "كليف مــاكاي" بجامعة كورنيل عندما

وإذا كان هـذا هو مـا يضعه البشر لأنفسهم من قواعـد لاتباع نظام غذائي متزن يضمـن صحتهم البدنية والنفسية، فما بالنـا بالمنهج الإلهي الذي وضعه الخالـق الأعلم بمـن خلق وبيّنه النبي المعصوم الـذي لا ينطق عن الهوى بقوله: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع).

وتبين الآية الكريمة في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة البقرة: 183) أن البشرية مارسـت الصوم منـذ القدم، وإن كان التاريخ لا يحدد لنا بدقة أول صوم منظم عرفتـه البشريـة، إلا أن قدماء المصريين والهنود والصينيـين والإغريق وعرب الجاهليـة كانوا يمارسون الصـوم بطرق مختلفة، كل حسـب معتقداته. كذلك فرض الله تعالـى الصوم على موسـى – عليه السلام – وعلـى اليهود، وفرضه أيضـاً على المسيح عيسى – عليه السلام – وعلـى النصارى الذين يصومون في أوقات محـددة بأساليب معينة، ثم جاءت رسالـة الإسلام الخاتم لتفرض على كل مسلـم ومسلمـة صوم شهـر رمضان كل عام هجـري بالطريقة التي حددها البيـان النبوي، وهـي الامتناع عن شهوتَي البطن والفـرج من طلوع الفجر حتى مغـرب الشمس، وهو ميقات مرتبط بشهر قمـري التقويم، كذلك نجد أن صوم النوافل مرتبط بالشهور الهجرية القمرية التقويم. وهنا تظهر أول ميزة للصوم الإسلامـي، وهي أن يصوم المسلمون في كل أوقات العام صيفاً أو شتاءً أو خريفاً أو ربيعـاً، فيكتسبـون بذلـك قوة تحمل، ويتعلمـون الصبر، وتتكيـف أجسادهم بالصوم على احتمال تكاليف الحياة إذا ما أصابهم نقص في الطعام أو الشراب في مختلف الأحوال الجوية على مدار العام، وهذا بعكس الذين يصومون أيامهم

أعطى مجموعة من الفئران حديثة الولادة كل حاجاتها من الغذاء وتركها تأكل دون قيد فكبرت وسمنت وصـار الخمول عادتها، ثـم أعطى مجموعة مماثلة الغذاء بحساب فلم يتركهـا تأكل حتى تشبع فكانت معـدلات نموهـا طبيعيـة وتميزت بالنشـاط والحيويـة المتدفقة، فضلاً عـن أن أعمارهـا طالت بنسبة (40 %) مقارنة بأعمار فئران المجموعة الأولى.

مرتبطين بالتقويم الميلادي أو القبطـي (النظام الشمسي)، حيث يصومون كل عـام تحت ظروف جويـة وبيئية واحدة رتيبـة لا تتغير، فتكون الفائـدة أقل من ناحية تعود الجسم على مختلف الظروف الجوية والصبر عليها.

من ناحيـة أخرى، تتراوح فترة الصوم الإسلامي ما بين 12 و 17 ساعة يوميّاً حسب الفصل من شتاء يقصر فيه النهار، أو صيف يطول فيه النهار، أو ربيع أو خريف، وهي فترة من الناحية الطبية تعتبر مناسبة وكافية لحصول الأثر المطلوب بالتعود على كمية طعام وشراب أقل، فلا يكون الصوم مجهوداً فـوق طاقة المكلَّفين بـه. فالإنسان السوي (العـادي) يمكنه تحمل هذه المدة مـع إمكانية تأديـة أنشطة الحياة اليومية دون تـراخ أو فتور معتمداً في هذا علـى مخزون جسده مـن الطاقة والسوائل. وهكذا يكـون الصوم الإسلامي متوازنـاً، ففـترة الصـوم اليومي ليسـت بالقصيرة بحيث تنعـدم الفائدة، وليست بالطويلة كما في بعض أنواع صوم غير المسلمين الذين يمتد صومهم إلـى يومين وأكثر؛ مما يـؤدي إلى هبوط حاد بقوى الجسـد ويُشكل خطورة حقيقيـة على الجسم والكفاءة المطلوبـة لأجهزته المختلفة، خاصة ما يسببه نقص السوائل من دخول الجسم في مرحلة عدم التوازن لإحساس بالعطش والجوع مع التوتر والإجهاد العصبي والبدني.

وبعـد انتهاء فترة الصوم اليوميـة يبيح الإسلام لأتباعـه كل أنواع الطعام والشـراب فيما عدا المحرمات – في قصد واعتـدال، وبذلك يعوض الجسم ما فقده من طاقات كانت. مخزونة مع تلافي حدوث أي ضرر للجسم لإباحة تناول كل الأطعمـة، فلا يُصاب الصائـم بأمراض سوء التغذية أو نقص الفيتامينات والأمـلاح المعدنية. وهـذا بعكس بعض أنواع الصوم التـي تمتد لفترات طويلة، كمـا في الصـوم الكبير عند النصارى ومدته 55 يومـاً، حيث يعتمد الصائمون

على المواد الغذائية ذات الأصل النباتي ممتنعين عن أي طعام دبت فيه الروح، وبذلك يُحرم الجسم من البروتين الحيواني وأحماضه الأمينية الأساسية اللازمة لتكوين الأنسجة الحيوية والهرمونات والإنزيمات وغيرها مما يحتاجه الجسم ولا يستطيع أن يعوضه بالغذاء النباتي؛ ولذا نجد أن هذا النوع من الصوم شديد الخطورة على صائميه، وخاصة المراهقين والأطفال دون سن البلوغ والناقهين ما لم يتم تعويضهم بكميات مناسبة من البروتين الحيواني. وبطبيعة الحال تزداد الخطورة أضعافاً مضاعفة لدى من يُسمّون أنفسهم بالنباتيين الذين يعيشون حياتهم كلها على الأغذية النباتية فقط.

والصوم الإسلامي لا يمنع الصائمين من ممارسة أعمالهم وقضاء مصالحهم، عدا الطعام والشراب والجماع بين الزوجين، بعكس نوع الصوم الذي يمارسه اليهود مثلاً في يوم الغفران. (يوم كيبور)؛ حيث يمتنعون عن ممارسة أي نشاط من أنشطة الحياة، وصوم الإغريق اليونانيين القدماء – الذي يخرجون فيه إلى الطرقات في حالة من الاكتئاب والضيق والحزن الشديد تمنعهم من مزاولة أي عمل.

صوم شهر كامل تكون له حصيلة إيجابية بالنسبة لتحقيق تضامن جماعي أكثر صلابة، فبالرغم من انتشار أخلاقيات المادية الغربية في المجتمعات الإسلامية، إلا أن هناك مئات الملايين من المسلمين الذين يحرصون على صيام رمضان كل عام. كما يمكن القول بأن الصيام الجماعي لمدة شهر كامل، وفي قارات وأقطار مختلفة من المعمورة تمثل خاصية من خصائص الحضارة الإسلامية؛ فمن وجهة نظر علم الاجتماع يقرر هذا الصوم الجماعي من أوامر التضامن الاجتماعي داخل كل قطر مسلم، وكذلك بين المجتمعات الإسلامية المتعددة على ظهر الكرة الأرضية.

وهكـذا نجد أن منهج الإسـلام في الصوم يَفْضُلُ كل أنواع الصيام الأخرى في أنـه يراعـي فائدة الجسد وصحة الـروح ونقاء النفس، مـع مواصلة الحياة الطبيعيـة بنشاط وحيوية، فالحمد للّه على نعمة الإسلام، وصلاة وسلاماً على رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين.

واستهداءً بمـا يقرره القرآن الكريم في قوله تعالـى: (أَيَّاماً مَّعْدُودَات فَمَن كَانَ منكُـم مَّريضاً أَوْ عَلَى سَفَر فَعدَّةٌ مِّنْ أَيَّام أُخَـرَ وَعَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فدْيَةٌ طَعَـامُ مسْكينٍ فَمَـن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُـوَ خَيْرٌ لَّـهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُـمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ) (البقرة: 184)، فإن الخـير الذي يجنيه الصائم كثير كثير، تكشف عن كنوزه أبحاث العلماء من آن لآخر.

ولعل أهم البحوث ما يتصل بالعلاقـة بين الصيام وفسيولوجيا الأجسام، فقد أظهرت أحدث الدراسات العلمية أن دوريّة صيام رمضان، أي إيقاع تردده مرة كل عام، يعمل على تحسين إيقاع هرمون الميلاتونين Melatonin المسؤول عن انتظام الإيقاع الأساسي لحياة كل عضو، وكل نسيج وكل خلية في الجسم؛ ذلـك أن الميلاتونين هو الهرمون الذي يساعـد في الإبقاء على الضبط الدقيق لأجهـزة الجسـم حتى تظـل متوافقة وعاملة معـاً في تكامل وتناغـم، ولا تكاد خليـة واحدة في جسم الإنسان، أو جهاز كامل مـن أجهزته، لا يتعامل مع هذا الهرمون ويتأثر به.

إن هنـاك مصدراً أساسيّاً للميلاتونين يتمثل في "الغدة الصنوبرية" التي تقـع في منتصـف المخ تمامـاً، وتكون على صلـة وثيقة بالعين مـن خلال ممر عصبـي، وهكـذا فحينما يقع الضوء على شبكية العـين تتولد نبضة عصبية لا تلبـث أن تصل سريعاً إلى الغدة الصنوبرية التـي تستجيب لها وتقوم بتحويل الحامضـ الأمينـي "تربتوفـان" إلـى مـادة "السيروتونين". ومـا إن يحل

الظـلام حتى تبـدأ في تحويل السيروتونين إلى ميلاتونـين لا تختزنه بداخلها، بـل تضخه مباشرة إلى مجرى الدم. وعلى هذا فإن مستويات عالية نسبيّاً من الميلاتونين تسري بمجرى الدم في الليل إلى كل أجزاء الجسم، ولكن مستوياته تنخفض كلما اقترب الصباح حيث يتسبب الضـوء الوارد من العين في توقف إنتـاج الميلاتونين. ومعنى ذلك أن الغـدة الصنوبرية تفرز الهرمون وفق نظام دوري محدد يتبع الليل والنهار.

هـذا إذن هو المصدر الأساسـي للميلاتونين. لكن الباحثـين عثروا حديثاً علـى مصدر آخر للهرمون يتمثـل في القناة الهضمية. فقـد أظهرت كثير من الدراسـات أن الجهاز الهضمي يحول التربتوفان إلى الميلاتونين. كما بينت أن هـذا النوع المعوي خلافاً للميلاتونين الصنوبري، ينتج بشكل ثابت نسبيّاً، وأنه يشـكل قاعـدة أساسية مستوى الهرمـون في الدم على مدار اليـوم. وأكثر من ذلـك، فإن إنتاجـه في الأمعاء لا يتأثر بالنور والظلام، وهـذا يعني أن الجهاز الهضمـي يبدو كأنه مصدر مستقل تمامـاً لإنتاج الميلاتونين. وفضلاً عن ذلك توصـل الباحثون إلى أن إنتاج هـذا النوع يتحسن كثيراً مع الصيام، ومع الحد من السعرات الحرارية في الغذاء.

ونجـد في اعترافـات عظمـاء المعمَّرين في العـالم ما يؤكد هـذه الحقيقة العلميـة، فقد قال أحدهم وكان يتمتع بصحة جيـدة بعد بلوغه سن المئة: (إن تمسكي بأبسط المأكولات، وتقشفي في المعيشة. كان أهم ما تتميز به حياتي عن حيـاة الآخريـن. فعلى الرغم من ثرائي الوفير وتواجـد أسباب الحياة المنعمة لي، إلا أني قـد حييـت حياة خالية مـن الإسراف معظم أيامـي. وكان غذائي المحبوب التمر واللبن، كما أتناول الخبز الجاف والجزر.. وكنت أصوم فترات متعددة في كل عام فجنبت نفسي ويلات المرض ومتاعب الشيخوخة).

واضـح إذن أننـا بفضل الصوم نصبح أكثر شبابـاً وحيوية، وأطول عمراً؛ لأن الحقيقـة التـي لا مراء فيهـا أن تحسنـاً شاملاً يعم الجسـم بكامله، وقد وضـع العلماء نظريات كثيرة لتفسير ذلك، لكن يبـدو أنهم اكتشفوا أخيراً أن هرمون الميلاتونـين قد يكون هو أساس الظاهـرة، وأن الصيام ينشط إنتاجه في الجسـم.. بل لوحظ أيضاً أن الصيام يبقـي على معدلات إفراز الميلاتونين – علـى مـدى سنوات العمر الطويلـة – كما كانت في سن الشباب؛ مما قد يفسـر جزئيّاً علاقة الصوم بتأخر الشيخوخة، وهـي العلاقة التي تشير إليها مئات التجارب التي أُجريت على الحيوانات المعملية، وعشرات الدراسات التي شملت المعمَّرين.

وهكـذا يُظهر العلـم لنا من آن لآخـر بعض الحكم وراء تشريـع الصيام، ندعو الله العلي القدير أن يعلمنا دائماً ما ينفعنا لفهم أحكام ديننا.

إن الحديث عن فوائد الصوم لا ينتهي، خاصة فيما يتعلق بفوائده الروحية. فالصـوم كان ولا يزال خير أسلوب يتبعه البشر لتنقية النفس والارتقاء بالروح. وصـوم رمضان على وجه الخصوص يتميز بنفحاته التـي تبهج النفس والقلب، فهـو يبـدأ في جو تعم فيـه الفرحة ديـار المسلمـين، ويستقبله المؤمنـون مهللين مكبريـن مرددين دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام عندما كان يرى هلال رمضان ويقول: (الله أكبر، اللهم أهله علينا باليُمْن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى، ربي وربك الله، هلال خير ورشد). (زاد المعاد).

ونفوس المسلمين تعلم أن أول شهر رمضان رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتـق من النـار، وفيه ليلـة القدر التي قـال الحق في شأنهـا: (إِنَّـا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَـا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَـةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْـفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَـةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِـإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّـى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

(ســورة القدر: 1–5)، فهي ليلة تساوي العمــر كله بما فيها من خير، حيث إن الألــف شهر تساوي نحــو 83 عاماً، وهو ما يفوق أعلــى متوسط لعمر الفرد في العالم[1].

وفي شهــر رمضان يزداد السمو النفسي والروحي بصلاة القيام وقراءة القــرآن وكثرة التسبيح والذكر والدعاء والبعد عــن اللغو والرفث والجدال. ولا شك أن كل هذه المشاعر الروحية السامية تزيل ما علق بنفس المسلم من رواسب كامنة هي من مسببــات الأمراض النفسية كالحقد والقلق والحسد وسرعــة الغضب والتوتر والخوف والاكتئــاب وغيرها، فقد أثبتت الدراسات الإحصائيــة أن حــوالي (40 %) مــن مرضــى العيــادات لا يعانــون إلا من أمراضــ نفسية، وفي أمريكا تزيد نسبة الأمراض النفسية والعصبية لتصل إلــى (80 %)، ويــزداد الإحساس بخطورة هذه الإحصائيــات إذا علمنا أن هنــاك مجموعة من الأمراضــ تُسمى الأمراض النفســ عضوية Psycho– Somatic Diseases، أي تلــك التــي تصيــب الجسد نتيجــة لعوامل نفسية معقــدة يعاني منها المريضــ فتظهر في صورة مرض جســدي عضوي، ومن أمثلتهــا الكثير من أمراض القلب كالذبحة الصدرية ومرض عصاب القلب (الــذي يسبب ألماً كاذبــاً كالذبحة الصدرية) وأمراضــ ارتفاع ضغط الدم والسكتــة القلبية وغيرهــا، وهناك أيضاً أمراض الجهــاز الهضمي الناشئة عــن أسباب نفسية، مثل قرحة المعدة وارتفاع نسبة حموضتها وصعوبة البلّع العصبــي والتلبّــك المعوي وفقــدان الشهية العصبي... وغــير ذلك. وهناك أيضــاً الأمراض الناشئة عن سبب نفسي، مثــل الحكّة العصبية والأكزيما

---

(1) مــن المعــروف أن متوســط عمر الفرد في الــدول الغنية والمتقدمة يزيــد قليلاً على 80 سنــة، وفي الدول المتوسطة يتراوح بين 60 و 70 عاماً، وفي الدول الفقيرة يتراوح بين 45 و 55 سنة.

العصبية والبهاق وسقوط الشعر وغير ذلك كثير.. والإيمان الخالص يصنع أثراً يشبه المعجزات في علاج مثل هذه الأمراض والوقاية منها قبل تفاقمها، والصوم بلا شك تعبير حي عن هذا الإيمان وتطبيقه. والإسلام يتبع منهجاً علميّاً سليماً في تعامله مع النفس وفق قدرتها، حيث يتخذ من التدرج أسلوباً لتنمية الملكات الروحية والطاقات الإيمانية، فتفيد منها النفس غاية الفائدة في سهولة ويسر. وحين يبدأ رمضان يكون المسلم قد تهيأ نفسيّاً لقدومه، ثم تمضي أيام رمضان حتى اليوم العشرين فيعتكف المسلم في المسجد متفرغاً للعبادة ومفرغاً قلبه لربّه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.[1] وهذا التفرغ الكامل لعبادة الله يزيد بالتدريج من استعداد النفس وطهارة البدن لتقبل المزيد من فيوض التجلي الإلهي على عباده المؤمنين، وكيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه) (رياض الصالحين).

ويوزع الإسلام صوم الفرض والنوافل توزيعاً منتظماً طوال العام، فيضمن للجسم حالة دائمة من الحيوية والنشاط والتعود المستمر. فرسول الله عليه الصلاة والسلام كان يصوم في شهر شعبان ليعلم أمته كيف تُعَدَّ لصوم رمضان؛ وبذا يتعود الجسم تدريجيّاً وفسيولوجيّاً الدخول إلى حالة صوم طويل لمدة شهر متواصل. وكذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوم عقب انتهاء شهر رمضان ستّاً من شوال، وهذا معناه في لغة الطب إخراج الجسم من حالة الصوم المتواصل إلى حالة الفطر الدائم عن طريق التحول التدريجي؛ وبذلك لا يتعب الجسم ولا ترتبك أجهزته في أداء

(1) عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشدّ المئزر) (البخاري ومسلم).

وظائفهـا، ذلك أن خاصية "التعـوّد" أو "التكيف" التي وهبها الله للجسم البشري تمكنه من معايشة ظروف بدنية معينة لفترة من الزمن دون حدوث ارتباك في وظائفـه بشرط أن يدخل في هذه الظروف ويعيش معها منسجماً بطريقة تدريجية، وكذلك حال خروجه منها.

ومـن النوافل أيضـاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلـم كان يصوم يومي الاثنـين والخميس من كل أسبوع، وكان يصـوم ثلاثة أيام من كل شهر هجري هـي الثالث عشـر والرابع عشر والخامس عشر، هـذا بالإضافة إلى صوم يوم عاشوراء وتحبيذه صوم التاسع من شهر المحرم، وصومه لتسع من ذي الحجة ويوم عرفة، أي أن هناك حوالي مئة وخمسين يوماً من الصوم الفرض والنافلة على مدار العام، على أن يُترك صوم النوافل لمن يستطيع حسب ظروفه وطاقته. ومعنـى هذا كله أن الإسلام يفتح الباب أمـام المسلم بالصوم خلال العام كله ليفيد من مزايا الصوم الصحية، فضلاً عن مزاياه التعبدية والروحية.

وإذا كان البعض يتساءل عن حالة الجوع التي يستشعرها الصائم، خاصة في الأيام الأولى من شهر رمضان المعظم، أو في بعض الأوقات من نهار الصائم في أي وقت من العام يُسنّ فيه الصيام، فإن الإجابة على هذا التساؤل تقتضي أن نفرق من الناحية العلمية بين حالتين: إحداهما هي الجوع الكاذب، والثانية هي الجوع الحقيقي.

أمـا الجوع الـكاذب، أو الجوع المؤقت، فهـو ذلك الانفعـال العكسي الذي يعتري المرء حينما يحل ميعاد وجّبته الغذائية، أو حينما يشم رائحة طعام شهي يتحلـب ريقه عليه، أو نحـو ذلك من العوامل الخارجيـة والداخلية الصناعية أو الثانويـة التـي تحـدث تنبيهاً مؤقتاً يثـير رغبة المرء في الطعـام. ويرى أهل الاختصاص أن حالة الجوع التي يحسّ بها بعض الصائمين في الأيام الأولى

مـن رمضـان إنما هي حالة من حالات الجوع الـكاذب أو المؤقت، مرجعها إلى العـادة والإِلْف. فالمعدة قد تعودت طوال أحد عشر شهراً على استقبال الطعام في ساعـة محددة من النهـار أو الليل. وما إن يحل موعـد الطعام المعتاد حتى تنشـط المعدة وتفرز مزيـداً من الحامض المعدي، ثـم تتقلص بهدوء في بادئ الأمـر، وبعد حـين تشتد تقلصاتها وتـزداد حدتها، وكأنها تذكـر المرء بميعاد وجبتـه. ولكـن المعـدة لا تتلقى إجابة مـن الصائم فتعود تلـح في طلب الوجبة مـرات، ثم شيئاً فشيئاً يضعف الانقباضـ ويخف الطلب، وبمرور الأيام الأولى تكـف المعدة عن طلبها تماماً وتنصاع لنظام الغـذاء الجديد، وهذا الانصياع خـير دليل على أن جـوع الصوم ما هو إلا جوع كاذب مـا يلبث أن يزول بمرور الوقـت، حيث تكـون المعدة قد تعودت على مواقيت رمضـان، وتكون قد أعادت ضبـط ساعتهـا البيولوجية، وأعادت "برمجتها" بحيـث يتحول النداء بطلب الطعام إلى موعد الإفطار الجديد.

وأمـا الجوع الحقيقي فهو حاجـة الإنسان إلى الطعـام والشراب اللازمين لتزويده بالطاقة الكافية لنموه ونشاطه وحركته وحياته؛ ومن ثم فإن الاحتياجات الغذائية لجسم الإنسان في شهر رمضان المعظم هي ذاتها نفس الاحتياجات في أي شهر آخر، ويستطيع جسم الإنسان أن يأخذ احتياجاته الغذائية من وجبتي الإفطـار والسحـور؛ لذا لا يجب أن يختلف الغـذاء في شهر رمضان المعظم عن غيره من الشهور الأخرى، وما دام الجسم يأخذ احتياجاته الغذائية من وجبتي الإفطـار والسحور، فيمكن للإنسان أن يقـوم بواجباته وأعماله العادية، ويجب ألا يركن إلى الكسل والخمول بحجة الجوع والعطش أثناء الصيام.

ولقد ثبت من نتائج علم تغذية الإنسان أن الجسم البالغ يمكن أن يختزن في المتوسط ما يقرب من 400 جرام إلى 500 جرام من المواد الكربوهيدراتية، وذلك على هيئة نشا حيواني يُعرف علميّاً باسم "جليكوجين". وهذه الكمية

التــي تختزن في الكبد والعضلات تعادل 1600 إلى 2000 سعر حراري تكفي الشخـص البالـغ مـن 12 إلـى 17 ساعـة في المتوسط، حيث يؤثـر في ذلك الجنـس والسنّ والوراثة ونـوع العمل... إلى آخره. فضـلاً عن هذا، يختزن الجســم كمية من الدهــون إثر تناول الطعام يلجأ إليهـا مع البروتينات بعد احتراق كمية الكربوهيدرات ونفادها.

وهكـذا يتبـين لنا أن الصيام بـريء من أية دعوى تزعـم مسؤوليته عن الإرهـاق أو التعب أو الشعـور بالصداع أو غير ذلك؛ حيـث إن المرء يُصاب بالإرهاق أو الصداع عندما يضطر الجسم لحرق كميات كبيرة من الدهون نظراً لزيادة الأحماض الدهنية في الدم، وهذا ما يشعر به بعض الصائمين الذيـن يصومـون دون تنظيـم لغذائهـم في وجبتـي الإفطار والسحـور، أو يتناولـون غذاء دسماً كثيراً بين هاتين الوجبتين، أو لا يتسحرون، أو يبكرون السحور، أو يؤخرون الإفطار، فيفقد الجسم نتيجة لذلك حالة التوازن التي حددهـا الصوم الإسلامي بفترة يومية ليســت بالقصيرة التي لا يُرجى من ورائها نفع ورجاء، وليست بالطويلة التي تسبب الضعف والإرهاق.

وقـد اتفق علمـاء التغذية أن المـرء الذي يؤدي أعمـالاً خفيفة يحتاج في حـدود 1500 سُعْر حراري، بينما الذي يؤدي مجهـوداً عضليّاً متوسطاً فإن احتياجاتـه من الطاقة تكون في حـدود 2000 سُعْر حـراري، والذين يؤدون مجهوداً عضليّاً كبيراً مثل عمال المصانع وعمال البناء فيحتاجون إلى كميات تصـل إلى أكثر مـن 3000 سُعْر حـراري، وفي ضوء هـذه النصائح العلمية يجب أن يحافظ الصائم على صحته اهتداء بقوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنـدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُـواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّـهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (سورة الأعراف: 31).

الفصل الرابع

أكل الطيبات

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (سورة البقرة: 172).

ترشـد هـذه الآيـة الكريمة إلـى نعمة الغذاء الـذي أوجـده اللّه - سبحانه وتعالـى - للإنسان ليفيد منه في بناء جسمه، ويمـده بالطاقة اللازمة لحياته، وبالعناصـر الغذائية التي تتكون منها خلاياه وأنسجتـه. فالغذاء ينبوع الحياة لا غنـى عنـه لكل كائن حـي أوجده اللّه على هـذه الأرض، مـن إنسان وحيوان ونبات. وتوجد في القرآن الكريم المبادئ الأساسية للتغذية السليمة القائمة على الاتـزان وعدم الإسراف، كما نهـى القرآن الكريم عن الأغذيـة الضارة والتي أثبت العلم خطرها على الصحة وكشف عن أسباب تحريمها، مثل الميتة والدم ولحـم الخنزير وغيرها. قال تعالى: (يَـا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (سورة البقرة: 168).

وتُعتـبر الأغذية الحيوانية من مولدات الطاقة ومصادر البروتينات التي يعتمـد الإنسان عليهـا في غذائه اعتماداً كبيراً، بالإضافـة إلى الفيتامينات والأمـلاح المعدنية. وتتميـز الأغذية الحيوانية بلذة طعمهـا وطيب شهيتها، وقـد ذكر القرآن الكريم منها اللبن والعسل واللحوم بشتى أنواعها والسمك والطيـور. وتؤكـد البحوث العلمية أن اللحوم مصـدر مركَّز لعديد من المواد الغذائية التي يحتاجها الإنسان، مثل البروتينات وفيتامينات مجموعة "ب" وبعض العناصر والدهـون، وبخاصة الكالسيوم والصوديـوم والبوتاسيوم، كمـا تبـين الدراسات العلمية أن مئـة جرام من اللحـم المطهي تمد الجسم بنصـف احتياجاته من البروتينات، بالإضافة إلـى الطاقة الحرارية يوميّاً، وأن اللحم ضروري لتجديد الدم والخلايا والأنسجة، ولأداء بعض الوظائف الفسيولوجية، ولمقاومة الأمراض التي تصيب الجسم.

ويُعتبر الكبد من الأغذية النافعة، وهو مخزن لمعظم المواد الغذائية ومصدر كبير للفيتامينات مثل فيتاميني "أ، د"، وبخاصة كبد الطيور والأسماك، كما يحتوي كبد الحيوانات على كميات هائلة من فيتامين "ب" المركب، وهو أيضاً مصدر غني لعنصر الحديد، بالإضافة إلى ما يحويه من البروتينات، ويُفاد منه لعلاج أمراض فقر الدم والكُلَى والمخ. أما مخ الحيوان فهو غني بعنصر الفوسفور وبعض العناصر الأخرى التي يحتاجها الجسم بكميات قليلة مثل الزنك والنحاس. وتختلف نسب البروتينات والدهون والكربوهيدرات والقيمة الحرارية تبعاً لنوع اللحم. ولا يحتوي دهن الدواجن على أحماض صلبة غير مشبعة، وتُقدر نسبة الأحماض الدهنية المشبعة في الدواجن بحوالي (30–35 %)، وهي تختلف تماماً عن الأحماض المشبعة التي توجد في الأبقار والغنم.

ولعل في هذا كله ما يظهر لنا حكمة التشريع الإسلامي في محاربته للمذاهب النباتية وحثه على أكل اللحوم التي أحلها الله تعالى لعباده. فحكمة الإسلام في هذا الصدد يوافقها ما أثبته علماء التغذية من أن الإنسان لكي يعيش عيشة صحية سليمة لابد له من أكل اللحوم والنباتات معاً، ولا يمكنه الاقتصار على أحدها دون الآخر. وتؤكد البحوث العلمية أن الإنسان إذا عاش على النباتات وحدها أُصيب بالهزال وضعف البنية، وتعرض لأمراض فقر الدم. وقد لوحظ أن الشعوب النباتية مثل الهند تكون أجسادهم هزيلة ضعيفة، فالطفل المولود في الشعوب النباتية لا يزيد وزنه عادة عن 2 كيلو جرام، في حين أن وزنه في الشعوب الأخرى التي تأكل اللحوم يزيد عن 3 كيلو جرام. ولعل هذا هو أحد الأسباب الرئيسة في تسمية الشعوب النباتية بالشعوب الصفراء.

وقد بدأت اليابان والصين في العصر الحديث بمحاربة هذه العادة النباتية حفاظاً على صحة أبنائها؛ وذلك بتشجيع أكل اللحوم في المدارس والمعاهد، ولكن هذا التغير في عاداتهم بدأ بدون هدى من عقيدة رشيدة أو دين قويم، فأقبلت الصين على أكل الكلاب والثعابين، كما أقبلت اليابان على أكل السمك النِّيء دون طهيه، وذلك بعد أن تبين لهم أن عدم تناولهم للحوم هو السبب الرئيس في ظهور أعراض فقر الدم، ولاسيما عند الأشخاص ضعاف البِنْية.

ومما يعوض النباتيين إلى حد ما أنهم يأكلون المشتقات الحيوانية كالحليب والبيض، وإلا أُصيبوا بالهزال وفقر الدم. وإذا كانت الأبحاث العلمية تبين أن النبات يحتوي أيضاً على البروتين والدهون، إلا أن نسب تواجد هذه المواد في النبات أقل منها في اللحوم، ولكي يحصل الإنسان على الكمية اللازمة لنموه وطاقته فلابد له من كمية كبيرة جدّاً من النبات مما قد يجهد جهازه الهضمي؛ وذلك لأن أمعاء الإنسان قصيرة بالنسبة لأمعاء الحيوانات آكلة العشب، فضلاً عن أن بروتينات النباتات لا تولّد جميع الأحماض الأمينية اللازمة لبناء أنسجة الجسم.

وقد صدق الله العظيم حيث يقول: (ذَلكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّه فَهُوَ خَيرٌ لَّهُ عندَ رَبِّه وَأُحلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (سورة الحج: 30)، وقوله: (وَلاَ تَقُولُواْ لمَا تَصفُ أَلْسنَتُكُمُ الْكَذبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّه الْكَذبَ إِنَّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّه الْكَذبَ لاَ يُفْلحُونَ) (سورة النحل: 116).

وأيضاً قال تعالى: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِه) (سورة عبس: 24).

يدعونا هذا الأمر الإلهي إلى أن نتأمل غذاءنا ونفكر في قدرة الخالق الذي جعل الجسم يؤدي وظائفه الحيوية بنسب مقدرة من المواد الفعالة في الغذاء،

وأي نقص في المقادير المطلوبة يمكن أن يكون له أثر سيئ على الصحة والحياة اللتين أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالحفاظ عليهما. وإن عدم توازن الغذاء يجعل الشخص عرضة لحوادث لا تقلّ في خطورتها عن نقص بعض المواد الهامة في الغذاء؛ حيث إن امتصاص بعض هذه المواد يعتمد على وجود كمية كافية من مواد أخرى في الأكل، فمثلاً، فيتامين "ج" ضروري في عملية امتصاص الحديد، وأيضاً نقص كمية الحديد في الدم، يكون مسؤولاً عن نقص فيتامين "ب12" في الدم، ويحدث أحياناً أنّ مجرد إعطاء الحديد لمثل هذا الشخص يحسن من وجود النقص في فيتامين "ب12".

ويحدد العلماء ثلاثة أنواع من الأنيميا تعود إلى نقص الحديد أو فيتامين "ب12" أو النقص الغذائي في حمض الفوليك. ويمكن معرفة أي نوع من الأنيميا لو تم فحص الدم وأخذ التحاليل اللازمة، مع ملاحظة أن هذه الأنواع من الأنيميا مرتبطة بالتغذية وتوازنها. وأهم شيء في تشخيص نقص الحديد هو حدوث التهاب في اللسان وتغيرات في شكل الأظافر وأحياناً صعوبة في البلع. وعلاج هذا النوع من الأنيميا يتم بتناول الحديد بالفم أو بالحقن، وإذا كان سبب الأنيميا هو نقص في الغذاء، فيلزم تناول فيتامين "ب" المركب وفيتامين "ج" للمساعدة في عملية امتصاص الحديد. ويُنصح بتناول مأكولات مثل الكبد وصفار البيض والفول لاحتوائها على كميات كبيرة من الحديد، أما اللحم والسمك والقرنبيط والبطاطس واللبن فتحتوي على كميات متوسطة من الحديد، بينما تحتوي الحبوب والخبز على كميات مناسبة ولكن بنسبة أقل.

وإذا كان هناك نزف أو عدم امتصاص حديد، مع نقص كمية الحديد في الغذاء؛ فإن هذا يزيد من حدة الأنيميا. إن نزيفاً مختفياً يمكن أن يكون

سببه بواسير أو فتــاق في الحجاب الحاجز، كما أن سوء امتصاص الحديد يمكن أن يُعـزى لأسباب كثيرة منها عدم وجـود حامض الهيدروكلوريك في المعدة ونقص الحديد نفسه بسبب ضمور في الغشاء المخاطي للمعدة.

أمــا بالنسبة لنقص فيتامين "ب12"، فــإن المطلوب اليومي منه بسيط جـدّاً في حـدود ميكروجرام واحـد (أي جزء من مليون جــزء من الجرام)، وهو حيواني في توزيعه، ويوجد في اللحم والكبد كما يوجد بكميات صغيرة في البيضـ واللـبن. والمخزون من فيتامــين "ب12" في الكبد يكفي لمدة لا تقل عــن ثلاث سنوات؛ ولذا نجد أن حدوث نقصـ غذائي من فيتامين "ب12" وحـده يُعتـبر شيئاً نــادر الحــدوث، وإذا حدث فيكـون ببطء شديـد. وعليه يمكن حـدوث هبوط حاد إذا كان الشخص نباتيّــاً تماماً ولا يتناول منتجات الألبان كلها.

ويــؤدي نقصــ فيتامــين "ب12" إلــى تأثـر أجهـزة الجســم المختلفة، وبخاصــة اللســان والبلعـوم في الجهــاز الهضمــي، وأعصــاب الأطراف في الجهــاز العصبــي. ويعالج نقصــ فيتامين "ب12" – حتى ولـو كان بسبب الغــذاء – عن طريق الحقن، وإذا كان مصحوباً بنقص في مواد أخرى فإنه يُفضل أن يعطى فيتامين "ب" المركب والحديث.

وأمــا بالنسبة لحمض الفوليك فإنه يوجـد في المصادر الغذائية النباتية والحيوانيــة على حـد ســواء. وتُعتــبر الخضــراوات ذات الأوراق الخضراء وأحشــاء الذبائح من الأغذية الغنية بحمضـ الفوليك، أما اللحم ومنتجات الألبان فإنها مصدر ضعيف لحمضـ الفوليك. وامتصاص حمض الفوليك يحــدث طبيعيّاً في "الإثنــا عشر" وأول الأمعاء الدقيقــة، ويؤثر نقصه على الجهازيــن الهضمي والعصبــي، بالإضافة إلــى الدم، وتظهــر أعراضه في

حـدوث إسهال وتغيرات في اللسان. وتجدر الإشـارة إلى أن حمض الفوليك يُدمّر بدرجة كبيرة أثناء عملية طهو الطعام، وبخاصة إذا استمر الطهو لمدة طويلـة أو استخدام كميات كبيرة من المـاء أو أُضيف بيكربونات الصوديوم لـلأكل، وفي مثل هـذه الحالة فإن جميع محتويات اللحـم والخضراوات من حامض الفوليك تُفقد تماماً.

وهكـذا نجـد أن الإنسـان مطالـب بالنظر إلـى طعامه ليكـون متوازناً متكامـلاً ملبياً لاحتياجـات جميع أجـزاء الجسم والإبقـاء عليها صحيحة سليمـة لتؤدي وظائفها الحيوية التي هيأها الله لها، وجدير بالإنسان المؤمن أن يحمـد الله – سبحانه وتعالى – ويشكره على نعمه التي لا تُحصى بعد كل وجبة غذائية يأكلها، فالحمد لله رب العالمين.

والأسماك تتفاوت أصنافها في التركيب الكيميائي تبعاً لأنواعها العديدة التي تعيش في المياه العذبة أو البحار، كما أن أسماك الصنف الواحد تتفاوت كثـيراً في تركيبها. خصوصاً في نسبة الدهون، وهناك أسماك تختزن المادة الدهنيـة في جسمهـا. ولكن تتوقـف نسبة هذه المـادة، التي تـتراوح ما بين (1–20 %) ، علـى نوع غذاء الأسماك وعمرهـا وأماكن معيشتها أو تربيتها والفصـل الـذي تُصطاد فيه، كمـا تبلغ نسبـة البروتـين في السمك حوالي 19 % من وزنه، ويحتوي هذا البروتين على أحماض أمينية تشبه في تركيبها لحـوم الأنعام، وهي ذات أهمية عظمـى في عمليات التمثيل الغذائي وتكوين الصفـراء والهيموجلوبـين. والبروتين بما فيه من أحماضـ أمينية هو الذي يقـوم بعملية الإحـلال للأنسجة المستهلكة في الجسم وبنـاء أنسجة جديدة بدرجـة لا تتوافر لأية مادة أخرى؛ ولهذا فـإن الحاجة للبروتين تزداد أثناء الطفولـة والحمـل. ويدخـل البروتـين في كثير مـن الإفـرازات المختلفة في

الجســم، فالأنزيمات ما هي إلا بروتين. وبعض الهرمونات يدخل في تكوينها البروتــين أو الأحماض الأمينية، واللبن واللعاب يتكونان من بروتين، وتنظيم العلاقــات "الأزموزية" بين السوائل المختلفــة في الجسم لا يتم إلا بواسطة البروتــين، وإلا يحدث تــورّم "أوديما"، والأجسام المضــادة التي تؤدي دوراً كبيراً في مقاومة الأمراض ما هي إلا بروتين. إن العرق والصفراء والبول هي السوائــل الوحيدة في الجسم الخالية مــن البروتين. وأحد مصادر البروتين التي يرزق الله منها عباده بغير حدود هي الأسماك.

ويتميز دهن الأسماك باحتوائه على كولسترول، كما أن الزيت المستخرج مــن كبد الأسماك، وبخاصة كبد الحوت، غنــي بفيتاميني "أ، د"، وتتراوح نسبــة الرمــاد في أصناف السمــك المختلفة مــن (1–1.5 %)، وتقدر نسبة الأحماض الدهنية المشبعة في زيت السمك بحوالي (10–25 %) من مجموع الأحماض الدهنية في الزيت. وهذا يعني أن السمك يحتوي على نسبة عالية مــن الأحماضــ الدهنية غير المشبعــة؛ ولذا فإنه يمكــن استخدامه في عمل "الريجيــم" الغذائي، ولو أن نسبة الكولســترول في السمك مساوية لنسبته في اللحوم والدواجن، بل إن بعض الأسماك البحرية تحتوي على نسبة أعلى من الكولسترول.

ويتوافــر فيتامينــا "أ، د" في زيــوت بعض الأسمــاك كالتونة، وتنخفض نسبة الفيتامينات كثــيراً في الزيوت المستخرجة من أجسام الأسماك وليس أكبادهــا. وتحتوي أسماك المياه العذبة علــى أنزيم يحلل "الثيامين"، وهذا الأنزيم لا يوجد في الأسماك البحرية إلا بنسبة ضئيلة في بعض الأصناف.

وتتميــز الأسمــاك بأنها تحتوي علــى نسب عالية مــن العناصر الحيوية كالكالسيــوم والنحــاس والحديــد والماغنسيــوم والفوسفــور والبوتاسيــوم

والصوديوم والاسترنشيوم، كما يوجد الألومنيوم والفلور والليثيوم والمنجنيز بنسب متوسطة، والباريوم والكروم والرصاص والسيليكون والبزموت والفاناديوم والزنك بنسب ضئيلة للغاية، وقد تحتوي بعض الأسماك على آثار ضئيلة من البورون والنيكل والفضة والقصدير. وتحتوي الأسماك دائماً على نسبة ملحوظة من الكلور والكبريت وآثار من البروم واليود. وتُعتبر الأسماك البحرية غنية باليود مقارنة بالأغذية الأخرى، وهذا اليود يفيد الغدة الدرقية. أما نسبة الفلور المرتفعة في الأسماك، وهي حوالي خمسة أجزاء في المليون، فإنها غير ضارة بأسنان الإنسان لاتحاد معظم هذا العنصر في صورة مواد عضوية.

هذه بعض فوائد الأسماك في تحقيق توازن الغذاء السليم وتنوعه، وصدق الخالق المنعم حيث يقول: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (سورة المائدة: 96).

الفصل الخامس

توجيهات شرعية لسلامة الأسرة
والمجتمع

لقد وضع الإسلام الأساس السليم لبناء اللبنة الأولى في صرح المجتمع السويّ. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم: 21). ولما كانت الأسرة هي وحدة بناء المجتمع الذي تتكون منه الدولة؛ لذا وجب أن تسود الأسرةَ روحُ السلام والوئام، وأن تبدأ تكوينها بزواج شرعي سليم بين الذكر والأنثى يحقق السكن والطمأنينة والأمن والسلامة، ويكفل استمرار الراحة الجسدية والروحية دون نَصَب أو عناء، وهو ما يحقق الوحدة والانسجام في هذا التكوين الاجتماعي الذي يشكل النواة لبناء مجتمع صالح خالٍ من الجهل والفقر والمرض والخوف والقلق، فهذه كلها أمراض اجتماعية يجب القضاء عليها لإصلاح حياة الفرد والمجتمع، وغير ذلك من المقاصد الشرعية.

ولقد تضمنت الشريعة الإسلامية توجيهات عديدة تنشد سلامة الأسرة والمجتمع، نعرض لبعضها فيما يلي:

الرضاعة الطبيعية

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة: 233).

تقــرر هذه الآية الكريمة تشريعاً إلهيّــاً يقضي بتكليف الوالدات أن يرضعن أولادهــن حولين كاملين قبـل اللجوء لأية وسيلة غير طبيعيــة كالإرضاع بحليب البقــر وغيره. وقـد جاء في الحديث الشريف أن الرســول صلى الله عليه وسلم عندمــا طلــب من أسماء بنت أبي بكر – رضــي الله عنهما – أن ترضع وليدها عبــدالله بن الزبير قــال: (أرضعيه ولو بماء عينيك). ذلــك أن لبن الأم يتميز علــى جميــع الألبــان الأخرى بــأن تركيبه ومقــداره يتغيران من يــوم لآخر بما يلائم حاجة الرضيع الغذائيــة وتحمل جسمه، وبما يلائم غريزة أجهزته التي تتطور هي الأخرى يوماً بعد يوم، وذلك عكس اللبن الصناعي الثابت التركيب. فالثــدي في الأيام الأولى عقب الوضع يفرز اللبــأ "كولستروم Colostrum"[1] بكميــات قليلة لكنها غنية بالبروتينات والفيتامينــات والعناصر المعدنية المهمة ذات القيمــة الغذائية العالية والمفيدة في بنــاء الجسم ونموه. أما كمية الدهون في اللبأ فهي قليلة جدّاً حيث لا تستطيع معدة الطفل الرضيع هضمها. ويحتوي اللبــأ "الكولســتروم" أيضــاً على تركيزات عاليــة من بروتينــات خاصة قاتلة للميكروبــات والجراثيــم تُسمى "الأجســام المضادة"، كما يحتــوي على مواد كيميائيــة ذاتيــة تقي الطفل من عــدوى الأمراض إلى أن يحــين الوقت لنضوج جهــاز المناعة لديــه للاعتماد عليــه في مقاومــة الميكروبــات والطفيليات التي يتعرض لها، واللبأ ذو خاصة ملينة تعمل على دفع ما في أمعاء الطفل من العفن.

ومن تدبير الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وهو أعلم بمن خلق، أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي تلبية لنمو جسم الرضيع يوماً بعد يوم، حتى يصل إلى حوالي لتر ونصف في اليوم بعد سنة، وفي أثناء ذلك تتغير مكونات

---

(1) اللبأ هو أول لبن يفرزه الثدي عقب الوضع، ويكون سائلاً غليظ القوام أبيض اللون مائلاً إلى الاصفرار، ويُسمى علميّاً "كولستروم".

اللبن وتتركز مواده النشوية والسكرية والدهنية والبروتينية فترة بعد أخرى، بل يومـاً بعد يوم، بما يلائم أجهزة الطفل وأنسجتـه المستمرة في النمو. بل إن إدرار اللبن وتركيزه يتغيران بشكل غريزي بين الزيادة والنقصان لإراحة الجهاز الهضمي عند الوليد بين فترة وأخرى، ويكون اللبن في المراحل الأولى للرضاعة رقيقاً ثم يغلظ وتتركز مواده بالتدريج، وفي أواخر الرضاعة تزيد نسبـة الملح وتقل نسبة سكر اللاكتوز ويصبح لـبن الأم غير مستساغ الطعم للطفل حيث يعرضه لسوء الهضم وميوعة النفس مما يساعد على فطامه.

وفضـلاً عن هذا كله يتميز لـبن الأم بأنه غذاء معقم بطبيعته وخال من الميكروبـات والجراثيم التي تسبب نزلات معدية أو معوية، وهو جاهز في كل وقت تحت طلب الطفل ويصل إلى جسمه في درجة حرارة مناسبة.

ويُعتـبر لـبن الأم مصـدراً جيـداً لعنصـري الكالسيـوم والفوسفـور، بالإضافـة إلى فيتامـين "أ" الواقي من العمى الليلـي وجفاف قرنية العين، وفيتامـين "ج" الواقـي من الأسقربوط، وفيتامـين "د" الواقي من الكساح ولين العظام، هذا عدا كميات من فيتامين "ب". أما نقص عنصر الحديد في اللبن فإن الطفل يولد وبجسمه ما يكفيه من الحديد طول مدة الرضاعة.

ولبن الأم أسهل هضماً لاحتوائه على خمائر "أنزيمات" هاضمة تساعد خمائـر المعـدة عند الطفل علـى الهضم خلال ساعة ونصـف فقط، وتبقى حموضـة المعدة طبيعية ومناسبة للقضـاء على الجراثيم التي تصلها. وهذا بعكـس حليب البقـر مثلاً الذي يتأخـر هضمه لثلاث أو أربـع ساعات، كما تعمـل الأملاح الكثيرة الموجودة في حليب البقرة على معادلة حموضة المعدة وإنقاصهـا إلى درجة تسمح للجراثيم – وبخاصة القولونية – بالتكاثر مما يؤدي لحدوث الإسهال والقيء.

وقـد كشف العلم حديثـاً عن أن لبن الأم يستطيـع أن يقتل طفيلاً دقيقاً يُعرف باسم "جيارديا"، وهو من الحيوانات الأولية الدقيقة التي قد تصيب أمعاء الأطفال لسنـوات طويلة. كما تمكن العلماء من عزل المادة الفعالة في لبن الأمهـات واتضح أنها إحدى مكونات الصفراويـة التي تجيء على هيئة خمـيرة "أنزيم" منشطة. ولقـد جُربت هذه المادة على طفيليات أخرى مثل الطفيـل الذي يسبب مرض الدوسنتاريـا الأميبية فقتلته.. وهذا من عجيب صنع الله الرحيم بعباده الضعفاء المحتاجين لعطفه ورعايته.

من ناحية أخرى، قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (سورة لقمان: 14).

تشـير هذه الآية الكريمـة في أحد معانيها إلى فضـل الأم ومعاناتها خلال فترتـي الحمل والرضاعة. واستطـراداً للحديث عن حكمة الرضاعة الطبيعية ومدتهـا بالنسبة للأم والابـن الرضيع على حد سواء؛ يكشـف العلم عن كثير مـن الحقائق التي تجلّي بديع صنـع الخالق سبحانه وتعالى، وتبين بعض أوجه الإعجـاز في التعبـير القرآني الدقيـق، فقد ثبت أن وضـع الطفل في الرضاعة الطبيعيـة نصـف جالس يسهل نـزول اللبن إلى الحلق والمعـدة دون أن يجد له طريقـاً إلـى الأذن الوسطـى وإصابتها، وهو مـا يحدث أثناء عمليـة الإرضاع الصناعـي حيث يتناول الطفل وجبته عادة وهـو مستلق على ظهره مما يسهل مرور اللبن الصناعي في القناة الواصلة من الحلق إلى الأذن الوسطى والمسماة بقنـاة "إستاكيوس"، فيحدث التهابات بالأذن الوسطـى، ويكون من نتائجها انفجـار غشاء الطبلة ونـزول الصديد إلى خارج الأذن، وقد يـؤدي الأمر إلى حـدوث مضاعفات أخـرى كثيرة يمكن أن تصل إلى المـخ أو العصب الوجهي. من ناحية أخرى، يؤدي استخدام زجاجة اللبن في الرضاعة غير الطبيعية إلى

حدوث تسوّس في الأسنان الأمامية قبل ثلاث سنوات، حيث ينام الطفل وحلمة زجاجة اللبن في فمه طوال الليل فيتجمع اللبن بين الحلمة والأسنان الأمامية مسبباً تسويسها، ناهيك عن الاختلاف في حركة الفك واللسان والتنفس في عملية الرضاعة غير الطبيعية يحدث عنه اختلال في انطباق الفكين على بعضهما. ويعزو بعض العلماء حدوث تسويس في الأسنان اللبنية إلى نقص أو غياب مادة "السيلنيم" التي توجد في لبن الأم بنسبة عالية[1].

وقد لوحظ أن إدخال أغذية مساعدة على لبن الأم في الأسابيع الأولى بعد الولادة، مثل اللبن البقري، يزيد من حدوث أمراض الحساسية المسببة للإسهال والقيء والمغص وسوء الامتصاص ونقص الوزن. إن وجود مواد مناعية مثل الجلوبين "أ" المفرز من لبن الأم، والذي لا يوجد مثيل له في اللبن البقري، يحمي من حدوث الحساسية في الطفولة المبكرة. ورغم كل التحسينات التي أُدخلت على طريقة إعداد اللبن الصناعي، وعلى طريقة إعداده للرضيع، فإن الإحصائيات تؤكد أن البعد عن الإرضاع من ثدي الأم يُعتبر من أهم أسباب ارتفاع نسبة الوفيات عند الأطفال.

ولبن الأم مثل الدم به أيضاً بعض الهرمونات والأنزيمات الفعالة، وقد ثبت أثره في تنمية ذكاء الطفل. ذلك أن أسرع مرحلة لنمو المخ تكون في العام الأول من حياة الإنسان، وخلال هذه الفترة يكون في حاجة إلى مواد غذائية كاملة ومتوازنة، وهي لا تتوافر بالشكل المطلوب إلا في لبن الأم فقط، وأي نقص يتعرض له الطفل بالإرضاع الصناعي غالباً ما يؤدي إلى نقص في القدرات العقلية.

---

(1) لوحظ أن حالات التهاب اللثة والأنسجة الداعمة للأسنان تنخفض بنسبة ثلاثة أضعاف في الأطفال الذين يرضعون من الثدي. أما حالات تشنج الحنجرة فلا تُشاهد إلا عند الأطفال الذين يعتمدون على الإرضاع الصناعي.

أما الأم المرضعة فتتمتع هي الأخرى بفوائد كثيرة من الرضاعة الطبيعية التـي تحميها من شـر الأورام والأمراض الخبيثة التي تحـدث للثدي. فمن قواعد سرطان الثدي أنه يصيب العذارى أكثر من المتزوجات، ويصيب غير المرضعات أكـثر من المرضعات، ويصيب قليلات الولادة أكثر من الوالدات، فكلمـا أكثرت المرأة من الإرضاع قل تعرضهـا لسرطان الثدي. ونزول اللبن من الثدي بعملية مص الطفل له يمنع تكدسه الذي يسبب تقيحات والتهابات بأنسجة الثدي تُعرف باسم "الخراريج المزمنة"

كما ثبت أن الرحم يعود إلى وضعه وحجمه الطبيعي بسرعة أثناء الرضاعة؛ لأن امتصاص الثدي يؤدي إلى إفراز هرمون يساعد على ذلك ويقلل من الدم النازف بعـد الولادة. ولا يخفى أثر هذا في استعادة رشاقة المرأة ومنع الترهل في بطنها، مما يدحض الادعاء بأن الرضاعة من الثدي تفسد الجسم وترهِّله.

يُضاف إلى ذلك أن الإرضاع من الثدي يُعتبر طريقة غريزية مُثلى لتنظيم النسل ومنع الحمل لمدة عامين على الأقل دون حاجة إلى المخاطرة باستخدام وسائـل لا تخلو من مضاعفات مثل الحبوب والحقن واللوالب وغيرها. ذلك أن مصّ حلمة الثدي يحرضـ على إفراز هرمون "البرولاكتين" من الفص الأمامي للغدة النخاميـة، والبرولاكتين ينبه الوظيفة الإفرازية لغدة الثدي، ويـؤدي إلى نقصـ إفراز الهرمونـات المنمّية للتناسـل Gonadotorphins والمسؤولـة عـن التغيرات الدوريـة في المبيض، فلا يحـدث التبويض ويمتنع الحمل بنسبة (60 %) تقريباً من النساء المرضعات.

ومـن جميل الذكـر في سياق الحديث عـن أهمية إتمام مـدة الرضاعة الطبيعيـة؛ بحيـث لا يكون إنقاصهـا على حساب حق الوليـد (الرضيع) في الحيـاة الصحيـة السليمة كإنسـان، نشير إلى ما رواه الإمـام أحمد بسنده

عـن محمد بن مهاجر، عن أبيـه، عن أسماء بنت يزيـد الأنصارية، قالت: سمعـت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تقتلـوا أولادكم سرّاً: فإن قتل الغيل يـدرك الفارس، فيُدَعْثِرُهُ عن فرسه) (رواه أيضاً ابن ماجه، كما رواه الطبراني بوجهين)[1].

مـن ذلك كله يتجلى دور العلم في إيضاح حرص الإسلام على الإرضاع الطبيعـي لمدة عامـين كاملين لمـن أراد أن يتم الرضاعة. وأمـا قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَـا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْـهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهـاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُـرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (سورة الأحقاف: 15)، فقد قال ابن عباس: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاعة 21 شهراً، وإذا وضعتـه لسبعة أشهر كفاه من الرضاعـة 23 شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين[2].

اعتزال النساء في المحيض

قـال تعالـى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُـلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُـواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّـىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُـنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِـبُّ التَّوَّابِـينَ وَيُحِـبُّ الْمُتَطَهِّرِيـنَ) (سورة البقـرة: 222)، لا

(1) راجـع في ذلـك البحث القيـم بعنوان "تحريم اغتيال حـق الوليد بين الدين والعلـم"، للأستاذ الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر.

(2) استمـرار الرضاعة بعـد سنتين قد يعرض الأم لفقد بعض العناصـر الضرورية للجسم مثل الكالسيوم، ويعرضـ ثدييهـا للتقرح ومضاعفاته نتيجة قضـم أسنان الطفل اللبنية. ويفضـل الأطباء أن يتم فطام الطفل تدريجيّاً بالاستعانة بأغذية مناسبة إلى أن يتمكن من الاستغناء تماماً عن لبن الأم.

يقتصـر الإعجـاز في هـذه الآيـة الكريمـة على البلاغـة ودقـة التعبير عن الأمـور الجنسية؛ بل إن إعجازهـا يتجلى فيما تقرره من حقائق كشف عنها العلـم الحديث. فما هي الحكمـة من تحريم الجماع أثنـاء الحيض؟ ولماذا كان النهـي والنـداء موجَّهاً للرجال دون النسـاء؟! للإجابة على ما يعنّ من تسـاؤلات في هذا المقام يجب أولاً تعريـف المحيض وخصائص دم الحيض. أمـا كلمة المحيض فتعبر عن الفترة الزمنية لنـزول دم الحيض شهريّاً، كل 28 يومـاً، فيما يُسمى بالدورة الشهرية، وتستمر مـن ثلاثة إلى خمسة أيام أو تزيـد، وتتراوح كميـة الدم التي تنزل يوميّاً في المتوسط ما بين (70سم^3) إلـى (100سم^3). وتعتـبر عملية الحيض من وجهة النظـر العلمية والطبية عمليـة هدم، حيث تتأثر خلايا الجهاز التناسلي للمرأة تأثيراً سلبيّاً، وتتأثر صحتهـا نتيجـة لفقد كمية مـن الدم ونقص نسبـة الهيموجلوبـين. أما دم الحيضـ ذاته فليس دماً عاديّاً، وإنما تغلب عليه السيولة وعدم التجلط، وله رائحـة خاصة تميزه عن الدم العادي، وهو يخرج من جميع الأوعية الدموية بالرحـم، سواء الشرياني منهـا أو الوريدي، مختلطـاً بخلايا جدار الرحم المتساقطـة وإفرازات الغـدد. ودم الحيض بيئة صالحـة لتواجد الميكروبات ونموها في المهبل(1).

وقد تُصاب الأنثى بعُسْر الحيض، وتشعر بصداع شديد، وآلام بالثديين، واضطـراب في المـزاج، وعدم رغبـة في المعاشرة الجنسية عنـد المتزوجات بسبـب مـا تحدثـه من متاعـب نفسيـة وبدنية؛ لهـذا حـرم الله – تعالى –

(1) في الأحـوال الطبيعيـة يفرز المهبل إفـرازاً حمضيّاً خاصّاً لتليينه وحمايته وتطهـيره من الجراثيم، ومن أهـم أسباب التهابات المهبل هو تغـير الوسط الحمضي إلى القلوي أو المتعادل بسبب وجود دم الحيض، ويكـون الرحم في أضعف حالاته أثناء فترة الحيض؛ نظراً لتوقف أجهزة المقاومة ونقص المناعة، فتنمو الميكروبات وتتكاثر، ومن هنا يكون الأذى الذي نهى القرآن عنه.

الاتصال بالمرأة جنسيّاً أثناء فترة الحيض تقديراً لحالتها المرضية ومراعاة لاستعداد الجسم لخروج البويضة من المبيض تمهيداً للحمل بخلق جديد. والمباشرة في تلك الحالة انصراف عن الفطرة السليمة النظيفة ولا تحقق إلا لذة حيوانية لا هدف منها ولا غاية؛ لأن هدف العلاقة الجنسية السليمة هو النسل وامتداد الحياة.

وهناك صور أخرى للأذى الذي يلحق بالمرأة بسبب الجماع في فترة الحيض. من ذلك أن الأوعية الدموية المبطِّنة لجدار الرحم تكون مفتوحة في تلك الفترة، وقد تؤدي انقباضات الرحم التي تحدث أثناء الاتصال الجنسي إلى دخول أجزاء من محتويات تجويف الرحم إلى هذه الأوعية الدموية المفتوحة ومنها إلى أجزاء الجسم المختلفة حيث تنمو وتسبب أوراماً ينتج عنها نزيف وقت العادة الشهرية. وقد اكتُشفت حالات إصابة بالالتهاب البريتوني نتيجة الاتصال الجنسي أثناء الحيض بسبب دخول البكتريا عن طريق قناتيّ فالوب إلى داخل الفراغ البطني. ليس هذا فحسب، بل إن الالتهابات قد تمتد إلى قناتيّ فالوب فتسدّهما أو تؤثر على شعيراتهما التي تدفع البويضة من المبيض إلى الرحم. وانسداد قناتي الرحم من الأسباب الرئيسية المُفْضية إلى العقم أو إلى الحمل خارج الرحم، وهذا من أشد أنواع الأذى؛ لأنه يؤدي إلى انفجار إحدى القناتين أو كلتيهما فتسيل الدماء في سراديب البطن وتحدث الوفاة. وقد يمتد الالتهاب من ناحية أخرى، إلى القناة البولية ومنها إلى الجهاز البولي، وهذا أحد أسباب السرطان الذي يلتهم عنق الرحم.

وليس الأذى الذي يصيب الرجل من جراء الاتصال الجنسي أثناء فترة الحيض بأقل من الأذى الذي يصيب المرأة؛ ذلك أن انتقال جزء

مـن دم الحيض غـير المتجلط – الذي هـو خليط من خلايـا بطانة الرحم والـدم وإفـرازات الغـدد وبه كثـير مـن الجراثيـم والميكروبـات السبحية والعنقودية – إلى القناة البولية في الذَّكَر يسبب حالة تشبه السيلان نتيجته نـزول إفرازات كثيرة من فتحـة القضيب بصفة مستمـرة، ويحدث التهاباً ينتقـل إلى البروستاتا والمثانة والحالبيْن وإلى حوض الكُلَى ثم الكُلَى نفسها، وعنـد إصابـة الحويصلتـين المنويتين يتضاعـف الألم عند التبـول والتغوط (التـبرز) وأثناء المشي أو عند الجلوس. ولما كان الرجل هو العنصر الفاعل غالباً في عملية الجماع فإن الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها وجهت النـداء للرجال دون النسـاء، وخاطبت فيهم منطق العقـل والتروي، وعدم الاستسـلام للشهوات والنزوات التـي تهيج فيه السعـار الحيواني المجنون، وتصرفه عن نواميس الفطرة السليمة التي أودعها الله في الإنسان[1].

وهكـذا تتجلى لنا روعة الإعجـاز التشريعي في القرآن الكريم منذ نزل به الوحـي علـى خاتم الأنبياء ليضـع أصولاً عامة لعلم الطـب الوقائي ومحاذير الاتصـال الجنسي، وقد تأكـد حديثاً أن مرض "الإيـدز" القاتل ينتقل أثناء الجماع في فترة الحيض.

لقـد أوضحنا حتى الآن مختلف أنواع الأذى الذي يقع على الرجل والأنثى نتيجـة الاتصـال الجنسـي أثناء فترة الحيضـ، ويكفي أن نذكّـر هنا بما هو معـروف طبيّاً من أن دم الحيض عبارة عن سموم ضارة وخلايا بشرية ميتة، وأن التطهر مـن دم الطمث ضرورة شرعية وضرورة صحية في الوقت نفسه. فالمسألة الجنسية ليست متروكة للأهواء والانحرافات، وإنما هي مقيَّدة بأمر

(1) هنـاك مـن الأزواج من يعتقد خطأ أن الجماع في يـوم التبويض مع بداية نزول الحيض كاف للتغلب على مشكلـة عـدم الإنجاب، ويعتمدون في ذلك على قياس درجة حرارة الزوجـة يوميّاً وعمل رسم بياني لها لتحديـد يوم التبويض الـذي ترتفع فيه درجة الحرارة قليلاً. والحقيقـة أن العقم له أسباب كثيرة عند الرجل والمرأة على حد سواء.

الله سبحانه وتعالى؛ لأنها تكليف محكوم بكيفية وحدود، والمباشرة في الطُّهْر تحقق اللذة الطبيعية والغاية الفطرية في آن معاً، فليس الهدف من الجماع هو مطلق الشهوة، وإنما الغرض هو امتداد الحياة بالحلال الذي كتبه الله إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ولا يخفى كذلك ما تتضمنه الآية الكريمة من معانٍ وآداب في التربية الجنسية، تهدف إلى تعويد الرجل على الصبر وتدعو إلى عدم الإسراف في ممارسة الجنس، انطلاقاً من القاعدة الشرعية العامة التي ينص عليها قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّات مَّعْرُوشَات وَغَيْرَ مَعْرُوشَات وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابهاً وَغَيْرَ مُتَشَابه كُلُواْ من ثَمَره إذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَاده وَلاَ تُسْرِفُواْ إنَّهُ لاَ يُحبُّ الْمُسْرِفينَ) (سورة الأنعام: 141). فلا يقتصر التوجيه على عدم الإسراف في المال أو الطعام، وإنما يشمل عدم الإسراف في الاستمتاع الجنسي وغيره من أمور الحياة. وقد ثبت علميّاً أن الإسراف الجنسي له تأثير ضار على الغدد التناسلية، حيث يسبب الالتهاب الاحتقاني للبروستاتا والحويصلة المنوية، فضلاً عن أنه يؤذي جلد القضيب، ويؤدي إلى ظهور بعض الجروح والتشققات السطحية، وفي بعض الأحيان يؤدي الإسراف في الجماع إلى ظهور المنيّ المدمَّم (أي يكون المنيّ مختلطاً بالدم)، وربما يؤدي أيضاً إلى تجلط الدم في الوريد القضيبي وحدوث ظاهرة الانتصاب المؤلم المستمر التي تستدعي تدخل الجراحة. كما أن مضاعفات الإسراف في الجماع تسبب الوهن الدائم للجسم، وعدم القدرة على التركيز الذهني واضطراب الشعور والحواس، وصعوبة الإدراك، وظهور حالة الحيرة والارتباك. ولعل في كل هذا ما يبين أن الحث على الاعتدال، وعدم الإسراف في جميع الأمور، بما فيها المعاشرة الجنسية، ضرورة يحض عليها الإسلام ويدعو إليها علم الطب الوقائي حماية لصحة الإنسان وحيويته.

وتواصل الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها بيان كيفية المباشرة الجنسية وحدودها، فتدعو إلى إتيان الزوجة في منبت إخصابها وتحرم إتيانها في دبرها وقايةً من الميكروبات العديدة التي توجد في الشرج ولا يوجد مثلها في المهبل وهو باب الرحم. وقد أثبتت الدراسات الطبية الحديثة أن انغماس عضو التذكير في فتحة الشرج يعرضه لأمراض خطيرة مثل التهاب مجرى البول، وغالباً ما يتسلل الميكروب إلى البروستاتا، وقد يسبب له العقم، كما أن الرجل قد يتسبب بدوره في نقل هذه الميكروبات إلى رحم المرأة، ومن ثم قد يتسبب في إصابتها هي أيضاً بالعقم، وفضلاً عن ذلك فإن إتيان المرأة؛ في غير منبت الإخصاب؛ لون من ألوان الشذوذ الجنسي الذي يؤدي إلى فض العلاقة الزوجية. فعضو التذكير في الرجل يتعرض لأمراض تحيق به ضعفاً أدائيّاً في المجال الجنسي، وشرج المرأة يُصاب بالتشقق والالتهابات التي تؤدي إلى أسوأ العواقب، فضلاً عن الأذى النفسي الذي يلحق بالمرأة لإحساسها بافتقاد حقها الطبيعي في الاستمتاع الجنسي الذي لا يتحقق إلا في المكان الطبيعي الذي جعله الله منبتاً طبيعيّاً للإخصاب والتكاثر. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة: 223)، قال ابن عباس: الحرث موضع الولد. والمقصود من وراء هذا ألا يتحول الجنس إلى متعة هوجاء، وألا يكون هو الغرض الأوحد من أغراض الزواج، فوضع الزواج في الأصل لإنجاب الذرية وإبقاء النوع البشري، ولم تُخلق الشهوة الجنسية إلا لتكون باعثة على إتيان الولد.

وهكذا نقف بفضل العلم على حقيقة ما يفرض الله من فروض ليطهر عباده الذين يتوبون حين يخطئون ويعودون إليه متطهرين مستغفرين. إنه

توجيه إلهي في التربية الجنسية، أبرزه اللّه تعالى في حقائق يكتشفها العلم، ويدعو إلى الإلمام بمعرفتها؛ فآية واقعية أصدق وأدق وأشمل مما تثيره آيات القرآن الكريم للارتقاء بحياة الإنسان، ومن أصدق من اللّه حديثاً؟! (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (سورة الملك: 14).

الفصل السادس

أفعال حرَّمتها الشريعة

1 - الإجهاض

قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة الأنعام: 151).

تحدد هذه الآية الكريمة بعض ما حرم الله على عباده، وتذكر من بينها جريمة قتل الأولاد ذكوراً وإناثاً بسبب الإملاق (أي الفقر) الواقع فعلاً، كما تحرم آية أخرى نفس الجريمة التي تُرتكب خشية الإملاق (أو الفقر) الذي لم يقع بعد، ويُحتمل حدوثه مستقبلاً، وهي قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) (سورة الإسراء: 31)، وتشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى أن إزهاق الحياة ليس من أسباب علاج الفقر، فهذه الجريمة دوافعها اقتصادية بحتة، وضحاياها الأولاد ذكوراً وإناثاً، وهي غير جريمة "الوأد" وهي قتل الإناث أحياء دون الذكور، وكان يقترفها الرجال في الجاهلية دون النساء خشية العار والهوان مصداقاً لقوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ) (سورة النحل: 58، 59).

ويرى بعض المفسرين أن المقصود بجريمة قتل الأولاد لدوافع اقتصادية هو إحداث الإجهاض. وقد حرمها الله تعالى على نحو ما ذكر، وأمر رسوله أن يبايع المؤمنات على ألا يقترفنها، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الممتحنة: 12).

من ناحية أخرى قرر الإسلام أن زواج الذكر بالأنثى هو مصدر التكاثر والذُّرية كما صرح بحق الذرية في الأبوة الحقيقية، فقال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) (سورة النحل: 72)، وقال عز من قائل: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) (سورة الأحزاب: 5)، وقال سبحانه: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) (سورة المجادلة: 2).

وتقرر هذه الآيات الكريمة أهمية التكاثر والذرية عن طريق الزواج الشرعي بين الذكر والأنثى. وتدل آيات القرآن الكريم في مواضع كثيرة على أن الأولاد من النعم وزينة الحياة الدنيا. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة الله – عز وجل – في خلق الذكر والأنثى؛ داعياً إلى مثل ما دعت إليه الرسل من العناية بالتناسل والتكاثر بقوله عليه الصلاة والسلام: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة)[2].

والكثرة التي يتطلبها الإسلام لا تكون بالكم وكثرة العدد المهمل؛ وإنما بالكيف وحسن الأداء. ذلك أن الشريعة الإسلامية تتطلب أن تكون الكثرة قوية لا هزيلة بحيث تحفظ للأمة قوتها وعزتها ومنعتها، ومن ثم فإن

(1) رواه أحمد عن أنس.

(2) رواه الحاكم ورواه الإمام أحمد وصححه ابن حبان. انظر: سبل السلام شرح بلوغ المرام للصنعاني، ج3 ص 145.

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحث على حسن رعاية الأبناء وتربيتهم وتعليمهم من أجل خدمة مجتمعاتهم، بحيث لا تكون الكثرة مصدر ضعف وهوان للأمة، حتى يصدق عليها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها) قيل: أمِنْ قلة يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: (لا، بل أنتم كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل)[1] (سنن أبي داود: 426/2) [2].

من ناحية أخرى، يتضح من استقراء آيات القرآن الكريم أنه لم يرد فيه نص يحرّم منع الحمل، أو الإقلال من النسل، وبمطالعة كتب السنة الشريفة وأقوال الفقهاء نجد أن الإسلام قد أباح العزل، وهو أن يقذف الرجل بنطفته ومائه خارج مكان التناسل (الرحم) بزوجته، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعزلون عن نسائهم وجواريهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك بلغه ولم ينْه عنه[3].

وقد توصل الطب الحديث إلى طرق علمية كبيرة تقوم مقام العزل، وتنطبق عليها رخصة رسول الله عليه الصلاة والسلام في العزل، فمنها اللولب والغشاء الحاجز والحبوب وغيرها من الوسائل التي تمنع الحمل منعاً مؤقتاً دون ضرر بأحد الزوجين أو كليهما، ودون تأثير على أصل الصلاحية للإنجاب.

وتجدر الإشارة إلى أن تنظيم النسل يخضع لظروف المكان والزمان من حيث التحديد أو الإكثار، فيكون الأول (التحديد) مطلوباً في البلدان

(1) غثاء السيل هو ما يعلو فوق الماء من زبد ليس له بقاء ولا احتمال، وإنما هو رغاوات ليس إلاّ. والمقصود به ما يسوقه السيل أمامه من النفايات وبقايا الأشياء التافهة.

(2) كما رواه مسلم عن جابر ورواه البخاري أيضاً.

(3) رواه مسلم عن جابر ورواه البخاري أيضاً.

والمجتمعـات التـي تهددهـا المجاعـات لقلة خيراتهـا ومواردها عـن تعداد السـكان فيهـا، ويكون الثاني (الإكثار) مطلوبـاً في المجتمعات الغنية التي لا تعاني من مشكلات سكانية.

كذلـك يجب التفريق بين تنظيـم النسل عن طريق وسائل منع الحمل، أي الحيلولة دون حدوثه ابتداء بالعزل أو الحبوب أو اللولب.. إلخ، وبين الإجهاض أو القضاء على الحمل وإسقاطه بعد وقوعه، فالأول جائز شرعاً، على نحو ما أوضحنـا بخلاف الآخر، وهو الإجهاض، فهـو ممنوع شرعاً وهو ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن ذلك هو الوأد الخفي).

ويشترط فقهاء الشريعـة الإسلامية في جواز تنظيم النسل بمنع الحمل فـترة مؤقتة بموافقة الزوجين، فلا ينفرد بـه أحدهما مستبدّاً بالرأي. وإذا كان هذا هو الأساس فإن القانون الوضعي لا يصلح أداة لتنظيم النسل؛ لأن الإرادة لا يتحكم فيها القانون، إذ إن لكل فرد ظروفه التي يقدرها وعليه أن يحسن التقدير. وهذا التقدير الحسن يأتي بالتوعية والإعلان للناس، وعلى الدولة أن تتخـذ الوسائل الكفيلة بالإرشاد وحسن التوعية وجديتها. ويحرم لأي واحـد مـن الزوجـين أو كليهما أن يلجـأ إلى التعقيـم القاطع للإنجاب بـدواء أو بجراحـة بحيث يترتب عليه عدم الصلاحيـة للإنجاب مستقبلاً، إلا لضرورة، كأن يكون أحد الزوجين، أو كلاهما، مصاباً بمرض موروث، أو ينتقل بالوراثة مضرّاً بالأمة حيث ينتقل بالعدوى، وتصبح ذريتهما مريضة لا يُستفاد بها، بل تكون ثقلاً على المجتمع. فمتى تأكد ذلك جاز تعقيم المريض، بل ويجب تعقيمه دفعاً للضرر؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح في قواعد الشريعـة الإسلامية، ويجب أن يستقر في الأذهان أن مرجع الأحكام الشرعيـة ومصدرهـا – من حيث الحِلّ والحُرْمة والجواز والمنع – هو كتاب

الله تعالــى (القرآن الكريم) وسنة رسوله عليــه الصلاة والسلام، أما العلم بإنجازاتــه وتقنياتــه فيُستدعى فقط علــى سبيل الاسترشاد لمــا فيه خدمة الدين الحنيف وبيان أحكامه الشرعية.

ويأتي تحريم الإســلام للإجهاض انطلاقاً من حرمة حياة الإنسان حتى وإن كان جنيناً، وتختلــف آراء الفقهاء والأطباء المسلمين بشأن تحديد بداية الحياة بالنسبة للجنين، فهناك من يرى أن الحياة تبدأ من لحظة الإخصاب، خصوصاً أن التقنيات الحديثة قدمت الأدلة على حركة الجنين منذ البدايات الأولــى للحمل واعتباره كائناً حيّاً منذ لحظة الإخصاب، وهناك من يعترض علــى هذا النوع من الحياة ويشبهها بالحياة التي يوصف بها النبات، وليست الحياة المرادة في المصطلح القرآني والموجودة في الإنسان وهو جنين بعد نفخ الــروح في نهاية الشهر الرابــع من الحمل، وذلك استناداً إلى حديث الرسول صلــى الله عليــه وسلم الــذي يخبر عن بــدء الحياة في الجنــين ومنحه صفة الآدميــة وخصائصهــا بعد مرور مئــة وعشرين يوماً على بــدء الحمل: حيث يقــول: (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمــه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيُؤمر بأربع كلمات، ويقال لــه اكتب عمله ورزقه وأجلــه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيــه الروح). ويحاول فريــق ثالــث أن يوفق بين الرأيين فيذهــب إلى أن الحياة تبــدأ منذ التصاق البويضة الملقحة بجدار الرحم بعد ستة أسابيع من لحظة الإخصاب، أي أن أول مراتــب الحيــاة للجنين يتحقق بالعلوق في جــدار الرحم حيث تزداد فيه إمكانية الحياة، وتزداد حرمة الجنين كلما تطور ودخل مراحل النمو الكامل.

ومهمــا يكــن مــن أمر هــذه الاختلافــات بشــأن تحديد بــدء الحياة في الجنــين فإن علمــاء الشريعة في زماننا يأخذون بالمعطيــات الطبية والعلمية

الجديدة ويقررون أن حياة الإنسان محترمة في كافة أدوارها منذ بداية الحمل، ولا يجوز إهدارها بالإجهاض إلا في حالات الضرورة القصوى التي تجعل استمرار الحمل تهديداً لحياة المرأة، فإن الأم في الشريعة هي الأصل والجنين هو الفرع، ويمكن التضحية بالفرع إذا كان هو السبيل الوحيد لإنقاذ الأصل؛ عملاً بالقاعدة الشرعية التي تقول باختيار أخف الضررين إذا استحال دفعهما معاً. وهنا تقع المسؤولية على الطبيب المعالج وحكمته وتقديره للضرر الذي يستوجب الإجهاض، كأن تكون المرأة عسرة الولادة، ويرى الأطباء المختصون أن بقاء الحمل في بطنها ضار بها، أو أن تكون الأم مصابة بأورام خبيثة تستدعي إزالة الرحم أو حشوه بأنابيب الراديوم، أو حالات الارتفاع الخبيث في ضغط الدم وبعض الأمراض الطبية.

والمهم في كل هذا أن حياة الجنين وديعة استأمننا الله عليها وعلى رعايتها قبل أن تولد وبعد أن تولد، وحسابنا في ذلك على الله.

2 - زواج الأقارب الملتصقين

كان الزواج بالأقارب شائعاً عند كثير من الأقوام والشعوب، ولما جاء الإسلام حرَّم زواج الأقارب الملتصقين لحِكَم نفسية واجتماعية وطبية ووراثية أوضح العلم الحديث جوانب كثيرة منها، وحبَّب إلى المسلمين الزواج بالأباعد في النسب.

قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ

أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً) (سورة النساء: 23).

تشير هذه الآية الكريمة صراحة إلى تحريم زواج الأقارب الملتصقين لحكم نفسية واجتماعية وطبية، أوضح العلم الحديث جوانب كثيرة منها. أما الحكمة النفسية والاجتماعية فهي أن الزواج عادة يقوم على الألفة والمودة، وزواج الأباعد تنمو في ظله مثل هذه المعاني ويتسع نطاقها مما يعود على الأسرة بالهناء والاستقرار.

وأما الأسباب الطبية فمنها أن زواج الأقارب يُنتج ذُريةً أفرادُها على استعداد كبير للأمراض والتشوّه بعيوب خِلْقية، وأنَّ استمرار تزاوج الذرية بالأقارب يقضي إلى إقلال درجة التناسل حتى لقد تصل أخيراً إلى العقم، كما يؤدي إلى إضعاف السلالة، بينما يُنتج زواج الأباعد ذرية تفوق أيّاً من الأبوين على السواء، كذلك أثبتت أبحاث العلماء أن زواج الأقارب يزيد من احتمال ظهور الصفات والأمراض الوراثية المتنحية التي يحصي منها المتخصصون ما يزيد عن مئة مرض معروف، مثل البرص الوراثي والبول الأسود وبعض أمراض التهاب الشبكية وغيرها. ودلت الإحصائيات على أن الصفات الوراثية السائدة والمتنحّية التي يحملها الإنسان تتكاثف بالزواج من الأقارب وتظهر بصورة جَليّة وبنسبة أكبر مع مرور الزمن، ويكون الأمر على درجة كبيرة من الخطورة إذا كانت هذه الصفات من النوع الرديء كالعادات السيئة والسلوك الشاذ المرذول، هذا فضلاً عن الأمراض الوراثية التي تزداد فرصة ظهورها وتأكيدها؛ لأنها تصبح مثبتة لصيقة بالجينات (وحدات الوراثة) في الصبغيات أو "الكروموسومات" التي تحدد صفات الإنسان وطباعه وسلوكه وقابليته للأمراض. ومن هذه

الأمراض الربو وارتفاع ضغط الدم ومرض السكر وبعض أمراض القلب ومرض الحساسية وأمراض الجهاز العصبي مثل الصرع وكثير من العيوب الخِلْقية، ومنها أيضاً مرض الزهري الذي يُورث إلى أكثر من ثلاثة أجيال ومرض الهيموفيليا الذي يسبب النزف المستمر من أي جرح (مرض سيولة الدم) وأمراض التخلف العقلي والذهني.

كما أثبتت ملاحظات الأطباء حديثاً أن الاستعداد للإصابة بسرطان الثدي قد ينتقل عن طريق الرضاعة، ذلك أنه اكتشف أن الأم التي تنحدر من أسرة حدثت بها حالات سرطان الثدي قد تكون حاملة لفيروس المرض وتنقله لأي طفل تقوم بإرضاعه فينشأ مصاباً به، ويمكن أن يورثه هو الآخر لذريته[1].

وقد تنتقل كل هذه الأمراض عن طريق الآباء دون أن تظهر أعراض المرض على الشخص الذي يحملها إلا إذا صادف أن كان الأبوان على علم بوجودها عند الأجداد.

وخلاصة القول إن زواج الأباعد يقلل من توارث الأمراض والعيوب الخِلْقية؛ ولهذا جاء في الأثر (اغتربوا ولا تضووا)، أي تزوجوا في الأباعد ولا تتزوجوا في الأقارب، لئلا تسببوا ضعف نسلكم وهزاله. ويتفق هذا المطلب الإسلامي مع العلم اتفاقاً كاملاً؛ لأن الإسلام حريص على خلق إنسان قوي سليم البنية والعقل خالٍ من الأمراض؛ لأن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف. وقوة المؤمن تتمثل في قوة عقيدته وإيمانه بخالقه وبتعاليم دينه،

(1) في أوائل السبعينات من القرن الماضي قام فريق من علماء الأورام الأمريكان بإحصاء حالات سرطان الثدي في مدينة بومباي بالهند، حيث توجد قبيلة "البارسي" المعروفة كمجتمع مغلق يشيع فيه زواج الأخوات من الرضاعة ولا يتم الزواج فيه إلا بين أفراده. وقد تبين أن سرطان الثدي يمثل خمسين في المئة من حالات الإصابة بالسرطان بين الإناث.

وتتمثـل أيضـاً في قوتـه بدنيّاً ونفسيّـاً وعقليّاً حتـى يسهـم في إقامة الدولة الإسلاميـة القوية. ولعل هذا هو ما يعمق فهمنا لما جاء في الحديث الشريف (تخـيّروا لنطفكم فإن العـرق دسّاس)، ففيه تنبيه إلى تدقيق الاختيار عند الـزواج حتى تضمن أجيـال طاهرة خالية من الأمراضـ الوراثية، وهذا ما تعنيه كلمة العِرْق من تسرب الأمراض الوراثية من أحد الزوجين أو كليهما، والدسـ فهـو التسرب إلـى خلايا الجنين ومـا ينشأ عنه مـن أمراض. كما يحذرنـا عليه الصلاة والسلام من أمراض البيئـة ويدعو إلى عدم الاندفاع نحو المرأة الجميلة التي تجذبنا بحسنها الظاهر لتصرفنا وتلهينا عن كشف أصلهـا السيئ وبيئتها الدنيئة، فيقول: (إياكم وخضراء الدّمن)، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول اللّه، قال: (هي المرأة الحسناء في المنبت السوء).

فمـا أحوجنا إلى فهم مثل هـذه التعاليم الوقائية التي رفع لواءها الإسلام الحنيـف قبـل إنشاء مكاتب فحص الراغبين في الـزواج بأكثر من أربعة عشر قرناً، وما أحوجنا إليها أيضاً في هذا العصر الذي تفشت فيه الأمراض العقلية والنفسية والجسمية بسبب الممارسات الشاذة والأوبئة الاجتماعية المختلفة.

3 - شرب الخمر

قـال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَـانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَـا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) (سورة المائدة 90، 91).

الخمـر في الفقه الإسلامي هي كل مُسْكِر سواء كان متخذاً من الفواكه، كالعنب والتمر والزبيب، أو مـن الحبوب، كالحنطة والشعير والذرة والأرز،

أو من الحلويات كالعسل. ويدخل في تركيب الخمر مواد كيميائية كثيرة من بينها مادة الغول (الكحول) الإيثيلي التي تتسبب في جميع الأمراض والأضرار الناتجة عن تعاطي الخمور بأنواعها. فجميع المشروبات الروحية، كالعرق، والشمبانيا، والويسكي، والبراندي، والكونياك، والفودكا، والبيرة، تحتوي على نسب مختلفة من مادة الكحول، باعتبارها علة الخمور كلها. وتكمن خطورة الكحول في أنه يُمتص بسرعة فائقة عن طريق مخاطية الفم والمعدة، وعن طريق الرئتين، ويعطي تراكيز عالية في الجسم خلال فترة زمنية وجيزة.

وقد أجمل الله - سبحانه وتعالى - الآثار الضارة للخمر في صدِّها للمسلم عن ذكر الله واتباع أوامره ونواهيه بصفة عامة، وعن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر بصفة خاصة.

وجاء العلم بأجهزته ونظرياته ليوضح للناس تدريجيّاً الحكمة من تحريم الخمور والمواد الكحولية بعد أن تأكد تأثيرها الضار على أجهزة الجسم المختلفة ووظائفها؛ لذلك يجب التذكير دائماً بأضرار الخمور حتى يحذرها المؤمن ويهجرها كل من وقع بين براثنها، عسى أن يتدارك نفسه وينتشلها قبل حدوث الكارثة.

وفي استعراض سريع لما كشفه العلم في هذا المجال نشير إلى أثر الخمر السيئ على الجهاز العصبي، حيث يترتب عليه ضعف مراكز المخ الراقية العليا التي تميز الإنسان عن الحيوان، مثل ما يختص بالخجل والخوف والحكم على الأشياء ونتائجها، والقدرة على الكلام والحركة. وتظهر الاضطرابات النفسية بدرجات متفاوتة متمثلة في الغناء، والصياح والثرثرة، وزياغ البصر، وازدواج الرؤية وعدم وضوحها. وإذا ما أكثر الشارب من الخمر فإن الخمول يمتد إلى الأعصاب الأخرى التي تختص بالتفكير والوعي والحواس؛ مما يجعله غير قادر

علـى التفكير السليم، وغير مكترث بما حوله، فينتقل الشخص من حيث سلوكه مـن مرتبة الإنسانية إلى حضيض البهيمية، وإذا استمر في إدمانه فإن مداركه الحسية والعقلية تستمر في التدهور إلى أن يصل إلى دور الشلل والجنون. وكثيراً ما يقع الخلاف والشجار بين شاربي الخمر فيولد بينهم العداوة والبغضاء.

وللكحول في بـادئ الأمر تأثير المواد المنبهة؛ لأنه يمدد الأوعية الدموية التي تتصـل بالمخ، وبذلك تزداد كميـة الدم ويحدث التنبيه الوقتـي كشعور كاذب لا يلبـث أن يتلاشى سريعاً ليستولي الخمول والجمود علـى المخ، ويتبلد الإحساس والشعور، وتضعف تبعـاً لذلك قوة ضبط المخ لعمل العضلات. ذلك أن الرسائل التـي يتلقاها المخ من الحواس أو التـي تصدر عنه إلى العضلات يتأخر وصولها إلى مقرها في الوقت المناسب، وتصبح هذه الرسائل غامضة غير واضحة بتأثير دوران سمّ الكحول في الدم[1].

وقـد أثبتت التحاليل الكيميائية والدراسات الطبية والإحصائية أن أعراض التسمـم الكحـولي الحـاد (المعروفة بالسُّكْـر) تظهر عند نسبـة (0.5 %) من الكحـول في الـدم، وتزداد الأعراض كلمـا زادت هذه النسبـة لتنتهي بالسبات، والموت عند نسبة (50 %) من الكحول في الدم. وإذا تعرض السكران للبرد أثناء سباتـه فقـد يموت بتثبيط التنفس وتوقف القلب، كما أنه قـد يموت باستنشاق بعض المواد التي يتقيؤها.

إن الخمر تقتل في شاربها كل العواطف الإنسانية السامية كالحنان والعطف والأبـوة والواجـب، وتفقده احـترام آدميته؛ فـلا يستطيع أن يتلقـى تكاليف ولا يتحمـل مسؤوليات؛ ومن ثم يكـون فاسقاً لا يُؤْمَن لحديثـه أو كلامه ولا يُعتد له بشهادة.

(1) تؤثر الخمر أيضاً على جهاز الأذن الداخلية المختص بحفظ توازن الجسم.

وقد أجمل الحق - سبحانه وتعالى - الآثار الخطيرة المترتبة على تناول الخمر في وصفها بأنها رجس من عمل الشيطان. وإذا كان البعض يرى فيها شيئاً من المنفعة المادية من الناحية التجارية، فإن آثارها الضارة على جميع أجهزة الجسم أكبر بكثير؛ بل إن المؤتمر الدولي للأطباء سنة 1929م، أوصى بعدم وصف الخمر كدواء، وقرر أن انتشارها يهدم سعادة الأمم ويقوض أخلاقها.

وقد سبق أن تحدثنا عن الآثار الضارة التي تحدثها الخمر في الجهاز العصبي لشاربها، ونواصل استعراض باقي الآثار التي كشف عنها العلم والمتعلقة بالجهاز الهضمي، فنبدأ بالإشارة إلى ما تسببه الخمر من التهاب للأغشية المخاطية؛ مما يترتب عليه عدم استكمال هضم المواد الزلالية عند مدمني الخمور، كما أنه يُحدث ارتخاء وضعفاً في حركة العضلات المعوية، وهذا من شأنه ألّا يساعد على سرعة انتقال المواد الغذائية من المعدة إلى الأمعاء، فضلاً عن ازدياد نسبة الحامض المِعدي الذي قد يسبب الحموضة ويفضي إلى الإصابة بالقرحة المعدية والقيء. كما تحول الخمور دون انتفاع الجسم بالفيتامينات، وبخاصة فيتامين "ب" المركب، وينتج عن كل هذا فقر الدم الخبيث الذي يفضي لسرطان المعدة. وقد وُجد أن (90 %) من مرضى سرطان المعدة والمريء هم من مدمني الخمور.

ولما كان الكبد هو المصنع الرئيسي في الجسم والمعمل المختص بتخليص الجسم من جميع السموم التي تدخله، ويقوم بطردها عن طريق الدم، كما أن الكبد هو مخزن الأغذية الذي يمد الجسم بما يحتاجه منها عند الحاجة إليها؛ فإن أي تأثير ضار بالكبد ينعكس على الحالة الصحية العامة. ويكفي أن نعلم أن الخمر تسبب تأثيراً سامّاً مباشراً على الكبد، قد يحدث في غضون أربع ساعات فقط من تعاطيها. ويظهر فساد وظائف الكبد في

هبــوط "الجليكوجــين" وتزايد الدهنيــات ونقص كفاءة تمثيــل الجلوكوز، ويعقب ذلك تضخمه وتشحمه وقلة إفرازه، ثم تليّفه وعدم مقدرته على أداء وظائفــه الحيويــة. وإذا فقد الكبــد وظيفته وأصبح غير قــادر على تخليص الجسم من المواد السامــة فإن بقية أعضاء الجسم وأجهزته تهلك تدريجيّاً من جراء تأثير هذه المواد السامة، وغالباً ما ينتهي الأمر بالوفاة.

كذلــك يــؤدي تعاطي الخمر إلى حــدوث التهــاب بالبنكرياس، قد يكون حــادّاً أو مزمناً، وتكون نتيجته فقدان خلايــا البنكرياس قدرتها على إفراز الهرمونــات والأنزيمــات ويحــدث مرضــ السكــر مصحوباً بهــزال شديد نتيجــة لعدم قدرة الأمعاء على امتصاصــ الدهنيات. وتليف الكبد والتهاب البنكرياســ مــن الأمراضــ التي لا يمكــن الشفــاء منها؛ حيــث إن التدخل الجراحــي أو العلاج الباطني إنما يهدفان إلى الحــدّ من الأعراض وتفادي المضاعفــات فقط، ولكن التليف والقصور في الوظائف ليس هناك من سبيل إلى الشفاء التام منهما.

وإذا تطرقنــا إلى الكُلْيتين وتأثير الخمر عليهما فإننا نعلم أن الكُلْية هي التــي تقوم بتجميع المواد السامة التي تصــل إليها عن طريق الدم وتطردها مع البول. فإذا تسمم هذا العضو نفسه من تأثير الكحول، فإنه يفقد القدرة علــى أداء وظيفته، بــل يصبح مصدر خطر على الجســم، حيث يتحول إلى كتلــة دهنية لا قيمة لها ولا وظيفة، وغالباً ما ينتهي فشل الكُلْية بالوفاة، وهو مــا يُسمى بمرض "البولينــا"؛ حيث ترتفع نسبة مــادة البولينا بالدم لعدم قــدرة الكُلْية على التخلص منها وإخراجها، فتؤثر هذه المادة على المخ وتقتل خلاياه. وأحياناً يؤدي إدمان الخمر إلى تكون حصيات كُلوية مزدوجة.

وقــد لوحظ أن تنــاول الخمر يتبعه إفــراز كمية كبيرة مــن البول شديد

الحموضة. ويرجع ذلك إلى هبوط في الأعصاب المركزية، وليس إلى تأثير على الكُلى؛ ولذلك لا تُعتبر الخمر مدرة للبول كما يعتقد البعض، وإذا زادت الكمية يكثر إفراز الماء من الكُلى بينما يقل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم نتيجة لقلة إفرازات الغدة الكظرية.

ويواصل العلم كشفه لمقاصد الإسلام من تحريم الخمر - أم الخبائث - ويوضح آثارها الضارة على باقي أجزاء الجسم، فإذا نظرنا إلى الجهاز الدوري الدموي والتنفسي نجد أن الكحول يحدث اتساعاً في الأوعية الدموية؛ مما يترتب عليه ارتفاع في ضغط الدم، وهو من الأمراض الخطيرة التي قد تؤدي إلى هبوط في القلب أو انفجار في الشعيرات الدموية بالمخ محدثاً نزيفاً قاتلاً، أو انفجاراً في الشعيرات الدموية بالعين محدثاً فقدان حاسة البصر، أو انفجاراً في الشعيرات الدموية بالأذن الداخلية محدثاً صمماً لا علاج له. وقد تؤدي الخمر إلى الإصابة بنوع من الصمم العصبي نتيجة تأثر العصب السمعي بالسموم الناتجة عن هذه المادة الكحولية.

ويحدث كذلك أن تخلف الكحوليات تأثيراً سامّاً على عضلة القلب مما يعوقها تدريجيّاً عن القيام بوظيفتها على الوجه الأكمل، وينتهي الأمر بعجزها التام. وهو ما يُعرف بهبوط القلب الذي تظهر آثاره وأعراضه في سرعة ضيق التنفس عقب المجهود العادي، واحتقان في الرئة والكبد، وارتشاحات تحت الجلد تمتد تدريجيّاً إلى سائر أجزاء الجسم، وهذه الحالة تفضي عادة إلى الوفاة. وقد ثبت عمليّاً أن تناول بضع جرعات صغيرة من المشروبات الروحية القوية خلال أربع وعشرين ساعة يؤدي إلى زيادة عدد ضربات القلب عن المعدل الطبيعي بمقدار اثنتي عشرة دقَّة في الدقيقة، وهذا العمل الإضافي للقلب يؤثر في عضلته وأعصابه.

وإذا كان الله – سبحانــه وتعالى – قد خلق لنا الشرايين بمرونة مناسبة تتحمل التغيرات والضغوط المختلفة، فتضيق وتتسع حسب ما تقتضيه حاجة الجســم إلى كميــات الدم الموجــودة بها، فــإن المشروبــات الكحولية تسبب تصلبــاً في جدران الشرايــين، وتفقدها القدرة على المرونــة، ويصحب هذا التصلــب ضيق تدريجي في الشرايين ربما ينتهــي بانسدادها، فيقف وصول الــدم إلــى العضو المصاب وينتهــي بالتلــف. وإذا كان التصلب في الشرايين التاجيــة نتجت عنه أعراض الذبحة الصدريــة حيث يشكو المريض من آلام وضيق شديدين في الصدر تعوقانه عن الحركة، ويأتي الألم عقب المجهودات العضليــة أو الانفعــالات النفسية فينقطع الدم فجــأة عن عضلة القلب، وقد تحدث الوفاة مباشرة على الفور.

وإذا كان التصلــب في شرايين المخ نتجــت عنه أمراض عصبية كضعف الذاكــرة وانحطاط القوى العقلية والشلــل النصفي. وإذا حدث التصلب في شرايــين الأذن الداخلية نتج عنــه الصمم العصبي والــدوار. أما إذا حدث التصلب في شرايين العين نتج عنه ضعف في الإبصار قد يفضي إلى العمى.

وبالنسبة لتأثــير الكحوليات على الجلد، فإنها تحــدث اتساعاً مؤقتاً في الأوردة الدمويــة الموجودة بالجلد، حيــث تندفع إليها كميات كبيرة من الدم تسبب ارتفاعــاً في كمية الحرارة وشعوراً بالــدفء والانتعاش، خصوصاً في الأجواء الباردة. واتساع الأوعية الدموية هو الذي يضفي على الوجوه لوناً من الاحمــرار يظنه الجاهلون علامة على الصحة أو دليلاً على القوة، بينما هو دم اتسعت أوعيته الخارجيــة فوضح في حين أن الأوعية الداخلية انقبضت، فمقــدار الدم في الجسم ثابــت لم يتغير. أما الشعور بالدفء والانتعاش فهو شعــور مؤقــت لا يلبث أن يزول ويتحول إلى بــرد شديد ورعشة بسبب فقدان

الجسم لحرارته التي فقدها بالإشعاع إلى الجو البارد المحيط به. وإذا فقد الجسم حرارته على هذا النحو تعرض لنزلات البرد والالتهاب الرئوي، وقلّت مناعته، وأصبح عرضة للإصابة بأمراض الجهاز التنفسي كالتهاب الشعيبات الهوائية أو الإصابة بميكروب الدرن الذي يحطم الرئتين.

وإذا كنا سنكتفي بهذا القدر من الحديث عن الآثار الضارة للخمور كما أكدتها أبحاث العلماء، فإنه تجب الإشارة إلى أن مثل هذه الآثار المدمرة تمتد إلى الأجيال اللاحقة، حيث ينشأ نسل فاسد لا يخلو من تشوهات خِلْقية، بالإضافة إلى العلل الأخلاقية.

4 - الفواحش

قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة الأنعام: 151).

الفواحش كلمة تعني كل ما أفحش وتجاوز الحد، ويُقصد بها الزنا في أكثر من موضع، وتهدف إلى عدة معاني نوجزها فيما يلي:

أولاً: الزنا، بمعنى ممارسة الجنس بين رجل وامرأة غير زوجين: يقول تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً) (سورة الإسراء: 32)، أو بمعنى ممارسة الجنس بين ذكر وذكر، وهو ما يُعرف باسم اللواط أو الشذوذ الجنسي، كما في قوله تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (سورة النمل: 54، 55).

ثانياً: إشاعة الفضائح الجنسية ونشرها بالوسائل المختلفة من خلال وسائل الإعلام وشرائط الفيديو وانتشار القصص والأفلام الجنسية المثيرة للغرائز. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النور: 19).

ثالثاً: الترويج لانتشار الفواحش بطرق غير مباشرة مثل الرقص والإغراء ومقارعة الخمر وتناول المخدرات التي تنزل بالإنسان إلى مستوى البهيمية. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور: 21).

ومعنى هذا كله أن التبرج والسفور والاختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات الخليعة كلها فواحش تحيط بالفاحشة الكبرى (وهي الزنا أو اللواط) وتؤدي إليها؛ ونظراً لأن هذه الفواحش ذات جاذبية واستدراج للطبيعة البشرية إلى مستنقع الرذيلة، فإن تحريمها جاء بالنهي عن مجرد الاقتراب منها، سدّاً للذرائع ووقاية واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة البشرية. وهنا تظهر عظمة الدين الإسلامي الحنيف كدين وقاية وحماية قبل أن يقيم الحدود ويوقّع العقوبات، فهو لا يريد أن يعرّض الناس للفتنة ثم يكلّف أعصابهم عنت المقاومة. وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على غض البصر وحفظ الفرج والاحتشام في القول والعمل والسلوك. استعلاءً على الرغبة في الاطلاع على المفاتن أو إظهارها، وفي هذا خير ضمان عملي لإغلاق النافذة الأولى من نوافذ الفتن والغواية والحيلولة دون

تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون، وإلاّ فلَتَ زمام الأعصاب والإرادة، فإما الإفضاء إلى الطيش والجموح دون قيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح والكبت بعد الإثارة.

فلنتأمل إذن قول العليم الخبير في قرآنه الكريم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور 30، 31). وقوله عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (سورة المعارج: 29، 30)[1].

وهكذا يواجه الإسلام جريمة الفاحشة مواجهة عملية بالدعوة إلى إنشاء مجتمع نظيف يبقى فيه الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً وبقوته الطبيعية دون إطلاق للشهوات بغير حساب، ويجعل الزواج هو الطريق الطبيعي لتصريف الطاقة الجنسية الفطرية والحفاظ على بناء الجماعة وطهارة الحياة الاجتماعية. قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور: 32).

---

(1) والآيتان أيضاً من سورة المؤمنون (5، 6).

ولا يجوز– بحكم الإسلام – أن يكون الفقر وغيره من عقبات في طريق الـزواج سببـاً لممارسة الفواحش في أية صورة مـن صورها، فقد قال تعالى: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سـورة النور: 33). ولما كان الإسـلام نظاماً متكاملاً فهو لا يفرض العفة إلّا وقد هيأ لها أسبابها وجعلها ميسورة للأفراد، فأمر جماعة المسلمـين أن يعينـوا من تقـف العوائق في طريقهم إلى النـكاح الحلال لكي تجـري الحياة على طبيعتها كمـا أرادها اللّه تعالى طاهرة نظيفة خالية من الرجس والدنس. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (ثلاثة حق على اللّه عونهـم: المجاهد في سبيـل اللّه، والمكاتب الذي يريـد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف). (أخرجه الترمذي والنسائي).

لقـد تحدثنـا عن أنواع الفواحش التي حرمها اللّه بـين البشر، لما تناله مـن كرامة الإنسان والإنسانية، ولما تسببـه من فساد وخلل في بناء المجتمع؛ ونعرض الآن لحديث خاص بفاحشة الزنـا التي نهى القـرآن الكريم عن مجـرد الاقتراب منها ووصفهـا بأنها سبيل سيئ، ليس فقط بسبب ما تؤدي إليـه مـن اختـلاط الأنساب ووجـود أطفال غـير شرعيين أو مـا يسلبه من انحـلال تتجلى آثاره في كثير مـن المجتمعات التي شاعت فيها هذه الجريمة وتفشَّت منذ التاريخ القديم حتى العصر الحديث، ولكن أيضاً بسبب الكثير مـن الأضـرار الصحية الخطيرة التـي كشف العلم عـن مسؤولية الزنا عن حدوثهـا وانتشارها في المجتمع بطريقة يصعب البرء منها. قال تعالى: (وَلاَ

تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً) (سورة الإسراء: 32).

فالزنا يؤدي إلى انتشار الأمراض التناسلية المتنوعة مثل الزهري والسيلان والإيدز وغيرها.

أما مرض الزُّهَري أو "السيفلس syphilis" فسببه الرئيس هو الدعارة السرية، والعلاقة الجنسية المحرمة، والوطء في نكاح محرَّم غير صحيح. ولا يمكن أن يحدث مطلقاً نتيجة وطء حلال أو علاقة جنسية سليمة غير محرمة، فقد اقتضت حكمة الله - سبحانه وتعالى - أن يكون الزاني والزانية مخزناً أو مستودعاً لذلك الميكروب اللولبي المسبب للمرض، وهو جرثومة تشبه الأفعى بشكلها وحركتها وخبثها، وتحصل الإصابة بسبب ما اعتاد عليه طرفا الجريمة، الزاني والزانية، من ارتياد فاحشة الزنا النكراء، قال تعالى: (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (سورة النور: 3).

وتتجلى في هذا المرض عقوبة الله تعالى، حيث (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) (سورة الرحمن: 41). فالمريض بعد أيام أو أسابيع من جريمته يُصاب ببثرة غير مؤلمة مكان الجريمة، فتظهر قرحة لا تحدث ألماً على الأعضاء التناسلية الخارجية للزاني والزانية، وسرعان ما تختفي هذه القرحة بعد أيام قلائل لتحل الجرثومة في الدم، وبعد سنة أو سنتين تظهر وصمات أخرى تحمل علامات الخزي والعار، وتشمل هذه المرحلة ظهور تضخم في العقد الليمفاوية للجسم بأكمله، وطفح جلدي على هيئة بقع حمراء نحاسية تشبه نخالة الردَّة في بعض أجزاء الجسم، وحدوث آلام مبرحة في العظام والتهابات بحدقة العين.

ويغفل المريض عن مراجعة الطبيب، خجلاً أو إمعاناً في التردي

والانحــلال، ليستمر المرض وتستمر الجرثومة في الدم، حيث تظهر أعراض المرحلــة الثالثة لتكون وصمة العار الأبدية التــي لا تزول أبداً وتلازم الزاني والزانيــة طيلة فــترة حياتهما لتكون شاهــدة عليهما يوم البعــث مع شهادة جوارحهما، فيســري الميكروب إلى الكبد أو القلب أو المخ، أو حيث يشاء الله له أن يكون، ويُصاب المريض بشلل أو خرف مبكر، أو جنون، أو آفة في قلبه، أو قرحــة في كبده وأحشائه، ويغلب على آثار هــذا المرض الخطير أنها ذات طابــع محطِّم ومهلك للمكان الذي توجد فيــه الجرثومة، فهي تحطم الجلد محدثــة به قرحــات خبيثة، وتحطم عظــام الوجه والحلــق، وتحطم اللسان والحنجــرة محدثة اختناقــاً وحشرجة غليظة مزعجــة في الصوت، وتحطم الأعضــاء الداخليــة كالكبــد والطحال والقلــب، وتحطم الخصيــة، مصنع الإنتــاج الإنساني ومعمل الحياة، وتحطم الجهــاز العصبي فلا يملك اتزاناً ويفقد الإحساس.

والغريب أن جرثومة المرض الزهري لا تتوقف عند الزاني والزانية، فهي تمتد لتشمل نسلاً غير صالح للحياة، فالجنين يموت قبل أن يولد، وإذا قُدر له أن يعيش فإنه يظل حاملاً وصمات العار التي حملها من قبل طرفا الجريمة.

وأمــا مرضــ السيــلان فيسببه ميكــروب كــروي يكمن في مــزج الزناة العصــاة، وينتقل بينهم نتيجة الاتصالات الجنسية غير الشرعية، ولا يمكن أن ينتقل مطلقاً إلى عفيف أو عفيفة.

ومــن الجدير بالذكر أن المرأة تحتفظ بالجراثيم في أعضائها التناسلية لعــدة أشهر أو سنوات، وهذا يشكل خطراً مستمرّاً لنشر الداء. كذلك يمكن انتقــال المرض بالعدوى نتيجة استعمــال أدوات ملوثة به كالمناشف أو ميزان الحــرارة "الترمومــتر". وتظهــر أعراضــ مرضــ السيلان بعــد الجريمة

بيومين أو ثلاثة، حيث يخرج صديد مؤلم من العضو المصاب، ثم تأخذ الالتهابات طريقها إلى بقية أجزاء الجسم وأجهزته البولية والتناسلية. وتحدث تقيحات في غدة البروستاتا والتهابات في قناة الرحم والمبيض، غير الإصابة بالعقم في كثير من الأحيان.

ولابد من الإشارة إلى أن حكمة الله تعالى قضت ألاّ تسبب الإصابة بمرضَي الزهري أو السيلان أية مناعة حيوية، بعكس معظم الأمراض الأخرى. فمن أُصيب أول مرة بهذين المرضَين قابل لأن يصاب مرة ثانية وثالثة عندما يعود سيرته الأولى على طريق الضلالة.

هذا، ويسبب الزنا أمراضاً أخرى كثيرة مثل القرحة الرخوة أو اللينة التي يكثر وجودها عند الذكور في جسم القضيب أو الصفن أو العانة، وعند الإناث في الشفرين وقرب فتحة الشرج والفخذين، وهي قابلة للتعدد وتسبب آلاماً مبرحة. كذلك يسبب الزنا ما يُسمى بالقرحة الأكالة التي تتميز بشدة تأثيرها وإتلافها المستمر للأنسجة التي حولها مع عدم استجابتها للعلاج التام.

وهكذا تظهر حكمة التشريع الإسلامي بتحريمه للزنا، في ضوء الحقائق التي يقررها علم الطب الحديث.

وننتقل الآن إلى نوع آخر من أنواع الفاحشة أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (سورة الأعراف: 80، 81).

يحدثنا القرآن الكريم هنا عن لون خاص من أمراض الشذوذ الجنسي والانحراف عن الفطرة والفساد في التكوين النفسي والعضوي، وذلك بإتيان الذكور وترك النساء، وهو ما يُعرف "باللواط"، وقد عُرف قوم لوط بهذه الخطيئة المنكرة التي كشف القرآن الكريم عنها في آيات كثيرة مثل قوله

تعالى: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) (سورة الشعراء: 165، 166)، وقوله سبحانه: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (سورة النمل: 54، 55)، وقوله جل شأنه: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (سورة العنكبوت: 28، 29). وذلك للتغليظ على مرتكبي هذه الفاحشة، ولتنبيه الناس إلى خطورة هذه الجريمة البشعة التي تتقزز منها الأسماع وتنفر منها الطباع وتنحدر بالآدمية إلى أحط درجات السقوط والانحلال. وما يريده القرآن الكريم من تحريمه اللواط هو تطهير الأرواح من خبث الأهواء وتجنيبها مفاسد العادات وتحذيرها من سلوك طريق الشر، فقد شاءت سنة الله تعالى أن يخلق البشر ذكراً وأنثى متكاملَيْن ومجهَّزَيْن عضويّاً ونفسيّاً للالتقاء السليم الذي يحقق مشيئة الله في امتداد الحياة عن طريق النسل والتكاثر. أما إتيان الذكور للذكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتفق مع فطرة الوجود النقية، ولا يرتبط مع خط الحياة المستقيم في التناسل والتكاثر وعمارة الأرض.

ويُقصد باللواط، من الناحية الطبية، الجماع الشرجي، سواء أكان الملوط به ذكراً أم أنثى، فمن المحرَّم شرعاً على الزوج اللواط بزوجته أيضاً امتثالاً لقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (سورة البقرة: 222)، ويمكن إجمال الأضرار التي تسببها ممارسة هذه الفاحشة النكراء فيما يلي:

1 - ينتقل باللواط ما ينتقل بالزنا من الأمراض كالزهري والسيلان والقرحة، بالإضافة إلى الأمراض التي تصيب الجلد كالجرب والقمل، وتُصاب عضلات المستقيم بالارتخاء والتهتك، ويصبح الشرج فاقداً للسيطرة على عملية التغوط (التبرز) بشكل كامل، وقد يصبح المجني عليه متخنثاً إذا لزمته هذه العادة الخبيثة من صغره. كذلك تنتقل العدوى والميكروبات من الشرج إلى قضيب الذكر محدثة التهاب مجرى البول.

2 - الإصابة بأمراض نفسية كالإحساس بالعجز الرجولي والضلال الجنسي اللذين يؤديان إلى شذوذات خُلقية تفضي إلى الشعور بالاستقذار.

3 - أثبتت الأبحاث والدراسات العلمية الحديثة خطورة اللواط على صحة الإنسان، ولاسيما بعد انتشار مرض "الإيدز" بين المصابين بالشذوذ الجنسي، وهو مرض قاتل يقضي على المناعة المكتسبة؛ مما يؤدي إلى تفشي أمراض كثيرة داخل جسم المريض مثل الالتهاب الرئوي وتضخم الغدد الليمفاوية وفقر الدم والسرطان الذي يفضي إلى الموت.

ويتم انتقال "فيروس" هذا المرض القاتل عن طريق سوائل الجسم ومنها اللعاب والدم والسائل المنوي. وقد كشفت تقارير منظمة الصحة العالمية أن فوضى العلاقات الجنسية هي السبب الأول في ازدياد وباء

"الإيـدز" في دول مثـل أمريـكا وبريطانيـا وفرنسا وروانـدا وبورندي. وإذا كان عـدد مرضـى الإيـدز في العـالم لم يتحدد بدقـة حتى الآن لعـدم توافر المعلومـات الكافيـة لمنظمة الصحـة العالمية؛ فـإن أحدث التقاريـر تؤكد أن الإصابـة بالمرض في أوغندا قد تضاعف لدرجـة جعلتها تحتل المركز الثالث بعد الولايات المتحدة وفرنسا.

ومن عجـب أن تُقام المظاهـرات وتُجمع التبرعـات في تلك البلاد لحث جهـود البحـث العلمي مـن اكتشاف العـلاج الناجح لهذا المرض في أقرب وقت ممكن، ولا يرتفع صـوت واحد يطالب بتحريم الزنا والشذوذ الجنسي بأشكالـه المختلفـة. وهنا تتجلى روعـة إعجاز التشريـع الإسلامي بتحريمه لمختلـف صور الشذوذ الجنسي، والتي مـن أبرزها اللواط الذي كشف العلم الحديـث عـن أضـراره العضويـة والنفسيـة والاجتماعية، وحذر مـن آثار التحطيم السيئة التي نجمت عنه في كثير من دول الحضارة المادية الحديثة، وتتجلـى كذلك دعوة الإسلام إلـى إنشاء مجتمع نظيف بالإبقاء على الدافع الفطـري العميق بين الجنسين سليماً في موضعه المأمون لتجري الحياة على طبيعتها عن طريق الـزواج واحترام بناء الأسرة التي هي الوحدة الأولى في بناء المجتمع. قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَـى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَـيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون: 5–7)[1].

(1) استـدل الإمـام الشافعي – رحمـه الله – ومن وافقه بهـذه الآيات الكريمة على تحـريم الاستمناء باليد أيضاً، قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين — أي الأزواج والإماء اللائي أحلهن الله.

5 - أكل الميتة وما في حكمها

قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة المائدة: 3) وقال سبحانه: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة البقرة: 173)، وقوله عز من قائل: (قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الأنعام: 145)، وقوله جل وعلا: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة النحل: 115).

يشمل التوجيه الإلهي في هذه الآيات الكريمة تحريم أنواع معينة من اللحوم تحريماً قاطعاً لما تحتويه من خبث أو نجس كشف العلم الحديث عن بعض صُورهما. وغنيّ عن البيان أن هذا التحريم أمر واجب الأداء من قبل الإنسان لله سبحانه وتعالى، فالمؤمن حين يأتيه الأمر أو النهي من الله تعالى لا يملك إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا وما يريد الله بنا إلا خيراً، وطاعة الله - جل وعلا - امتثال والتزام وعبادة، والقاعدة الإيمانية (افعل ولا تفعل) اختبار لإرادة الإنسان ولقوة إيمانه وقدرته على اتباع ما أمر الله به

أن يتبـع والابتعاد عما ينهى عنــه، وسواء علمنا أو جهلنا الحكمة والأسباب، فـإن هــذا لا يؤثر في الأمر شيئاً، ولا ينقص من وجـوب الطاعة والتنفيذ مع الرضا والقبول.

وأول مـا يلاحظه المتدبر لمعاني هذه الآيــة الكريمة هو أن لحم الخنزير ينفــرد من بــين جميع اللحوم المحرمــة بأنه محرَّم لذاتــه، أي لعلَّة مستقرة فيــه أو وصْــف لاصق به، أمــا أنواع اللحــوم الأخرى المذكــورة فهي محرمة لعلــة عارضة عليها. فالشاة، مثلاً، لحمها حــلال طيب إذا ذُكيت بالطريقة الشرعيــة[1]، ولا يحــرم لحمها إلا إذا كانت ميتــة أو منخنقة أو موقوذة (أي مضروبــة حتى الموت) أو متردّيــة أو نطيحة (أي ماتت من سقوط من مكان مرتفــع أو ماتــت عن حادث كدَهْــم سيارة أو نطح غيرها لهــا) أو أكل منها حيــوان مفترس إلا ما ذُكِّي قبل أن تفارقه الحيــاة، أو إذا نُحرت على مذبح الوثنية، وقُصد بها غير وجه الله ذي الجلال والإكرام.

وقــد استطــاع العلــم أن يصــل إلى كثــير من الأســرار المتعلقــة بحكمة التحريم، وسوف نجتهد في بيان ذلك حتى نزداد شكراً لله الذي شرع لنا أن نجتهد في تفهم علة الأمر والنهي إذا توافرت لنا الأسباب المعينة على ذلك.

وبالنسبــة للميتــة فهي باصطــلاح الفقهاء مــا فارقته الحيــاة من غير ذكاة شرعيــة. وقد ثبت علميّاً أن جســم الميتة يحتبس فيه الدم بكل رواسبه وسمومــه، وقد يتخلل الدم جميــع الأنسجة اللحمية وتعمــل السموم عملها، فيبــدأ جسم الميتة يكتسب اللون الداكن، وتمتلئ الأوردة السطحية بالدماء،

(1) الـذكاة (أو التذكيــة) الشرعية: هي ذبــح حيوان مباح للأكل أو نحره، أو عقــره، بحيث يؤمّن استنزاف دم الحيــوان علــى أحسن وجه بقطع أوردة الرقبة وشرايينها الكبيرة، ويساعد في ذلك حركات الحيوان التالية للذبح. وتجب التسمية على الحيوان قبل ذبحه حتى يصير أكله حلالاً.

وتتوقـف الدورة الدموية دون أن يتسرب شيء ولو ضئيل من الدم إلى خارج الجسـم؛ وبذلك تصبـح الميتة كلها بـؤرة فاسـدة للميكروبـات والأمراض وتراكـم المواد الضــارة مثل البولينا وحمض البوليك، وتنبعـث من لحمها رائحــة كريهــة تجعل من الصعـب على كل ذي ذوق سليـم أن يتناوله إلا إذا دفعته الضرورة القصوى لذلك. وقد يكون من أسباب موت الحيوان إصابته بمرضـ التهابي يجعل الضرر الناتج عن أكله أشد فتكاً، ومن هذه الأمراض السل والحمرة الخبيثة، وقد قررت كتب الطب إعدام جثة الحيوان المصاب بـأي مـن هذين المرضين حتــى لا يُعـدي الإنسان. وقد يكون مـوت الحيوان بسبب ابتلاعـه نباتاً سامّاً أو مواد سامة مثـل السيانور والزرنيخ فيمتصها لحمــه وتصيب آكلها بأضرار بالغة. وقد تكون الميتة هرماً، حيث اللحم أكثر تليفاً وصلابة، بالإضافة لأضرار التفسخ وانحباس الدم. وفي جميع الأحوال يُفضـل مـن الناحية الصحيــة أن يقـوم الطبيب البيطـري بفحص اللحوم للتأكـد من صلاحيتها، وتحديـد ما إذا كانت الوفاة بسبب الهرم أو المرض، أو كانت اللحوم لحيوانات جُلبت من مناطق ملوثة بالإشعاع.

أما بالنسبة للمنخنقة فيُلحق بها ما مات بكتم النفس، أو غرقاً، أو ردماً، أو باستنشاق غازات خانقة؛ فهي كلها حرام؛ لأنه ما سال دمها[1]. وبالنسبة للموقوذة والمتردية والنطيحة فـإن الرضوض تسبب انتشار الدم واحتباسه في الأنسجــة وتحت الجلد مما يزيد احتمال تلفهــا ووصول الجراثيم إليها؛ فقــد ثبت علميّاً أن انحباس الدم يســرع التعفن ويزيد من تكاثر الجراثيم.

(1) من المعروف علمياً أن الكائن الحي إذا اختنق (أي مُنع دخول الأكسجين إلى رئتيه) فإن غاز ثاني أكسيد الكربـون يتراكم في الجسم مع غيره من الإفرازات السامــة التي يحملها الدم عادة لطرحها عن طريق الرئتــين وخروجها مع النفس في عملية الزفير، ويحدث التسمم في كل أنسجة الجسم نتيجة امتصاصه لهذه المواد، ومن ثم تحدث الوفاة.

من ناحية أخرى، ثبت أن الحيوانات البرية قد تكون مصابة بمرض يظهر في فمهـا ولعابها وتبقى آثاره على لحم الفريسة فتؤذي من يأكل منه وتمرضه، ولعل وراء هذا حكمة تحريم ما أكل السبع.

ولكـن إذا أمكـن الوصـول إلى هـذه الحيوانـات قبل موتهـا وتم ذبحها بالطريقة الشرعية فإنها تحل.

قـال تعالى: (قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الأنعام: 145).

لقد أوضحنا دور الاكتشافـات الطبية في بيان حكمة التشريع الإسلامي في تحريمـه لأكل الميتـة ومـا في حكمها مـن المنخنقـة والموقـوذة والمتردية والنطيحـة وما أكل السبع. ونواصل الآن حديثنا عن بيان حكمة تحريم الدم في ضـوء حقائـق العلم الحديث، فمن المعـروف أن الدم يتكـون من بلازما وكـرات الدم الحمـراء وخيوط الفيبريـن التي تساعده علـى التجلط، وإذا مـا تُرك الدم معرضاً للهواء الجوي فإنـه يصبح وسطاً صالحاً لنمو وتكاثر شتـى أنواع الجراثيـم. ويفيد العلمـاء في معامل التحاليـل الطبية من هذه الخاصيـة في زرع بعض أنواع البكتيريـا باستخدام مـزارع الدم الحيواني للحصـول على مستعمرات جرثومية يتم فيها تكاثر البكتيريا بأعداد هائلة، ويساعد هذا علـى سرعة إجراء التجارب والدراسـات والفحوص اللازمة. ويتلـوث الدم المسفوح بالجراثيم من مصـادر عديدة أهمها: أداة الذبح، أو الأيـدي، أو الآنية التـي يُوضع فيها الدم، أو الهواء، أو الذباب، أو غير ذلك. ويـزداد الضرر عندما يكون الـدم لحيوان مريض بأحـد الأمراض الحميّة (الجرثومية).

مـن ناحية أخرى، قد يؤدي شرب الدم المسفـوح إما إلى ارتفاع البولينا في الـدم وحدوث فشل كلـوي، أو إلى ارتفاع نسبـة الأمونيا في الدم وحدوث غيبوبـة كبدية. وقد أصبح من المؤكد علميّـاً أن الدم يحتوي على الكثير من المـواد السامة والفضـلات؛ لأن من وظائفه حمل فضـلات الجسم وسمومه ومخلفـات أفعـال الهـدم Catabalism في الأنسجة المختلفـة لطرحها، إما عـن طريـق الكُلّية، أو العرق، ومن أهم هذه المـواد البولينا وحمض البوليك والكرياتينـين، كما يحمل الدم غاز ثـاني أكسيد الكربون لطرحه عن طريق الرئتـين وخروجـه مع النَّفَس في عملية الزفـير، وينقل بعض السموم من الأمعـاء إلى الكبد لتعديلهـا. وعلى هذا الأساس فإن شرب كمية معتدلة من الـدم من شأنه أن يحـدث تهيجاً في أغشية المعدة والأمعـاء، وبتكرار شرب الـدم قـد تحدث حالـة حساسية شديدة مـن تفاعل بعض محتوياته (مثل الأنتيجينـات) مـع الأجسام المضـادة. ويـؤدي تراكم الـدم في الأمعاء إلى أضـرار خطيرة ما لم يتم بسرعة إعطاء الحقـن الشرجية وتخليص القناة الهضمية من الكميات المتراكمة منه في المعدة والأمعاء.

والـدم بطبيعته لا يعتبر غـذاء بشريّاً؛ حيث إنه يحتوي على نسبة ضئيلة من بروتينات المصل (البومين وجلوبيولين وفيبرينوجين) تتراوح بين (6و8) جرامـات لكل مئة ميللـي لتر، أما خضـاب الدم الموجود بكـثرة في الكرات الحمـراء فهو عسير الهضم ولا تحتمله المعدة، ثم إن الدم إذا تجلّط يصبح أشد عسرة لتشكّل ألياف الفيبرين Fibrin.

وهنـا تجدر الإشارة إلـى اعتقاد خاطئ مؤداه أن الـدم يُؤكل لما فيه من عنصـر الحديد اللازم لمعالجة فقر الدم، وحقيقة الأمر أن الحديد الموجود في الـدم من النوع العضوي، ومعروف علميّـاً أن الحديد العضوي أقل وأبطأ

امتصاصـاً في الأمعاء مـن الحديد غير العضوي، كما أنـه لا توجد ضرورة لتنـاول الدم أو شرب الهيموجلوبين لمعالجة فقر الدم طالما أن هناك العديد مـن المواد الصيدلانية التي تحقـق الهدف على نحو أفضل، كما يمكن تناول الكبد والطحال، وهما مباحان ويزودان الجسم بكمية جيدة من الحديد.

ومـن الجدير بالذكر أنه قد يـرد بلسان الشرع تسميـة الكبد والطحال باسـم الدم، وهذا من قبيل التشبيه لا الحقيقة؛ نظراً لاحتوائهما على كمية كبيرة من الدم، والواقع أنهما نسيجان عاديان لكل منهما وظائفه الخاصة. أمـا بالنسبة لحديث الرسول عليه الصلاة والسـلام الذي يقول: (أُحلت لنا ميتتـان: السمك والجـراد، ودمان: الكبـد والطحال)؛ فلعلـه لرفع الشبهة بتحريمهمـا عند مـن رأى أنهما أشبه بالدم من اللحـم. وعلى كل حال فإن علـم الطب لم يثبت أي ضرر مـن أكل الكبد والطحال، بل على العكس، فقد دل علـى كونهمـا مادتـين غذائيتين غنيتين بالكثـير من المـواد المهمة لبناء الجسم مثـل الجليكوجين (مولد السكر) والحديد والبروتين والفيتامينات. وبهذا أيضاً جاء علم الطب مصدقاً وموافقاً للشرع.

وهكـذا نجـد أن الحقائـق الطبيـة تلقي كثيراً مـن الضـوء على حكمة التشريـع القرآني في تحريمه لتناول الدم، وحتـى لو لم يصل العلم البشري إلـى حكمة هـذا التحريم؛ فإن ما قـرره العلم الإلهي فيـه كل الخير للحياة البشرية، والله لا يحرّم إلا الخبائث وما يؤذي حياة الناس سواء علموا بهذا الأذى أم جهلوه. وهل علم الناس كل ما يؤذي وكل ما يفيد؟!

أمـا لحـم الخنزير فإنه ينفرد مـن بين جميع اللحوم المذكـورة في آيات التحـريم بأنه حـرام لذاته، أي لعلة مستقرة فيـه أو وصف لاصق به. وتفيد معاجـم اللغة العربيـة بأن من معـاني "الرجس": القذر والحـرام وكل ما

انطوى على معـاني القبح والضرر. وقد يكون من أسباب ذلك ما نعرفه من أن الخنزيـر حيـوان رمّام، أي أنه يأكل كل ما يجده مـن القمامة والنفايات وفضـول الإنسان والحيوان، ويلتهم حتى جِيَفَ أقرانـه، وأنه لا يكاد يُرى إلاّ وأنفـه في الرُّغام، بـل يذكر البعض أيضاً سبباً آخر وهـو ما يشتهر به ذلك الحيـوان مـن طبائع يراهـا النـاس بمقاييسهـم عارية من الغـيرة والحياء ومنعكسـة علـى آكليـه. ويبدو أن النفـور والتقزز مـن هذا الحيـوان، ليسا قاصريْـن على المسلمين بسبب تحـريم أكل لحمه، ففي أمريكا وأوروبا تُعتبر تربية الخنازير تجارة رائجة، ويتخذ أهل تلك البلاد من هيئة الخنزير دُمًى لأطفالهـم، ومع ذلك فأسماؤه علـى اختلاف لغاتهم تُعدّ سُبَّة لا يقذفون بها إلا كل ذميم.

وقد أثبـت الطب قديماً وحديثاً أن الخنزير هـو أكثر الحيوانات احتواء لعديـد مـن الطفيليات التي قد لا تؤذيه هو، ولكنهـا إذا انتقلت إلى الإنسان عـن طريق لمسه أو تنـاول لحمه فإنها تصيبه بالأمراض الخطيرة التي قد تفضي إلى الموت أو تؤدي إلى عاهات مزمنة. ويمكن تصنيف أنواع الأمراض الخطيرة التي يسببها الخنزير إلى قسمين رئيسين هما:

1 - أمراض ينقلهـا الخنزيـر بقذارتـه مثـل الدوسنتاريـا (الزحار) الخنزيرية التي تصيب الإنسان نتيجة ميكروب معين (يسمى البلانتديارنس) يوجـد في براز الخنزير، وينتقـل إلى طعام الإنسان بعـدة طرق فيستقر في أمعائـه الغليظـة، ويسبب إسهالاً ودوسنتاريا مصحوبـة بالمخاط والدم، مع ارتفـاع في درجة الحرارة، وقد يحـدث التهاب بالرئة وبعضلـة القلب، وقد يُثقـب القولون وتحدث الوفاة. وينتشر الطفيـل المسبب لهذا المرض بين من يقومون على تربيـة الخنازير أو يعملون على ذبحها وتجارتها. وهناك أيضاً

مرض الدوسنتاريا الأميبية الذي سببه طفيليات الأميبا النسيجية التي تتخذ من الخنزير عائلاً لها وتُحدِث في نسبة من المصابين آثاراً مرضية شديدة بسبب القروح العميقة التي تنخرها في أنسجة الأمعاء، حتى لقد يصبح القولون من بدايته إلى نهايته كتلة من القرح، وقد ينتهي الأمر في بعض الحالات بالوفاة.

2 – أمراض سببها الوحيد هو أكل لحم الخنزير مثل مرض دودة لحم الخنزير الشريطية (المعروفة باسم تينيا سوليوم Taenia Solium)، وهي تعيش في طورها الشريطي البالغ في أمعاء الإنسان حيث يبلغ طولها أربعة أمتار في المتوسط (2–7 أمتار). وتسبب له اضطرابات في الهضم تظهر على هيئة ضعف في الشهية وإسهال أو إمساك، وتتسلل يرقات هذه الدودة إلى مجرى الدم لتستقر في أي عضو من أعضاء الجسم مثل الكبد والقلب والعين والعضلات وتتحوصل بها، فإذا استقرت في المخ – وهو مكانها المفضل – فإنها تتسبب في حدوث مرض الصرع. ويحدث هذا كله عندما يتناول الإنسان لحم الخنزير غير المطهي جيداً والحاوي على الطور المُعْدي للدودة.

وهناك غير ذلك أمراض أخرى لا تقل خطورة مثل الالتهاب السحائي المخي، ومرض الديدان الشعيرية الحلزونية، وثعبان البطن الخنزيري "الإسكارس"، والأنفلونزا الخنزيرية، والكثير من الأمراض الأخرى التي تنتشر عادة في المناطق التي لا يحرم فيها أكل لحم الخنزير.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ما أثبتته الأبحاث العلمية من أن جسم الخنزير يحتوي على كميات كبيرة من حامض البوليك نتيجة كثرة موارده وقلّة إفرازاته؛ لذلك لوحظ أن الذين يتناولون لحم الخنزير يشكون من آلام روماتيزمية والتهابات المفاصل المختلفة، فضلاً عن أن أليافه الغليظة تسبب

عسراً في الهضم وارتباكاً في الأمعاء، كذلك أثبتت التحاليل الكيميائية أن دهن الخنزير يحتوي على نسبة كبيرة من الأحماض الدهنية المعقدة التي تزيد مادة الكوليسترول في دم الإنسان عن المعدل الطبيعي، وتسبب تصلب الشرايين، وارتفاع ضغط الدم اللذين يؤديان إلى معظم حالات الذبحة القلبية.

وهكذا نجد أن العلم قد كشف عن بعض الأضرار البالغة لأكل لحم الخنزير مؤكداً صدق رؤية الإسلام والحكمة من تحريمه. وغني عن البيان أن معرفتنا ببعض جوانب علة التحريم لا ينفي وجود جوانب أخرى لم نعرفها بعد، فنقول ما قالته الملائكة: (قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (سورة البقرة: 32).

الفصل السابع

العلم والتقنية في خدمة الفقه المقاصدي

1 - مكانة الفطرة والمنهجية في الفكر المقاصدي

لقـد جاء الدين الإسلامي الخاتم ليقـود حركة الإنسانية كلها دون أدنى تناقض مـع الفطرة الإنسانية السويـة التي تمثل مبـدأً أساسيّاً من المبادئ التي يقوم عليها الفكر المقاصدي، وجملة من الإمكانات الإنسانية الجسدية والعقليـة، التي تتسق وتتطابق مع ما جاء به الشـرع الإسلامي. فالذي خلق النـوع الإنسـاني هو الذي شرع لهم الأحكام التي تصلح لهـم: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (سورة الملك: 14).

وقـد اختلـف العلمـاء حول ترتيـب المقاصـد الكليـة الخمـس للشريعة الإسلاميـة، والمتمثلة في حفـظ الدين والنفس والعقـل والنسل والمال، ورأى بعضهم أنها مترابطة فيما بينها ترابطاً محكماً، بحيث يتوقف وجود بعضها على البعضـ الآخر، "فلو عُدم الدين لعُدم ترتب الجزاء المُرْتَجَى، ولو عُدم المكلَّـف لعدم مـن يتدين، ولو عُدم العقل لارتفع التديـن، ولو عُدم النسل لم يكـن في العـادة بقاء، ولو عُدم المال لم يبق عيش". أو – بعبارة أخرى – أن هـذه المقاصد يؤثر بعضها في بعض، ويتداخل بعضها مع البعض الآخر، وأن حفـظ بعضها ينعكس تلقائيّاً في حفـظ البعض الآخر، وانخرام بعضها يؤثر في البعضـ الآخر، فهي أشبه بحلقـات السلسلة الواحدة التي يرتبط بعضها ببعضـ، ويأخذ بعضها بيد بعضـ. ورأى بعض المعاصرين في فكرة المنظومة الدائرية بديلاً عن الترتيب التقليدي[1].

ولمـا كان الفكر المقاصدي هـو الذي يمثل العُدَّة العلميـة (مبادئ وتقنيات ومفاهيـم) التـي يُتوسَّل بهـا في التوصل إلـى مقاصد الشريعـة، سواء تمثلت

---

(1) راجـع تفاصيـل ذلـك في: د. جمـال الديـن عطية، نحو تفعيـل مقاصـد الشريعة، المعهـد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سورية، 1422هـ / 2001م.

في المعـاني والـدلالات المقصودة من خطابها، أو تمثلـت في الغايات والأهداف المصلحيـة المقصـودة من تشريـع أحكامها العمليـة والاعتقاديـة، فإنه – أي الفكـر المقاصدي – بذلك يُعدُّ جانباً أساسيّـاً من الثقافة الفقهية والأصولية، باعتبـاره ممارسة اجتهاديـة في الشريعة الإسلامية بوصفهـا خطابات أُمرنا بالسعـي المستمر للإفادة من معانيها، وبوصفها كذلـك أحكاماً عملية تنطوي علـى غايات مصلحية تُقاس مشروعيتها بمـدى تطابقها مع الفطرة الإنسانية النقية بحسب ما يقصده الشارع.

ولقـد سبق للإمـام ابن عاشور – رحمـه الله – أن بـيَّن أهمية الفطرة، وكان مـن جملـة ما نبّه عليه قولـه: (إن كل فعل يحب العقـلاء أن يتلبس به النـاس، وأن يتعاملوا به فهـو من الفطرة، وكل فعل يكرهـون أن يقابلوا به، ويشمئـزون من مشاهدته وانتشاره، فهو انحراف عن الفطرة؛ فإذا تعارض فعـلان أو خاطـران مما تقتضيه الفطـرة وجب اختيـار أعرقهما في المعنى الفطـري أو أدْومهما، أو أشيعهما في النـاس، أو أليقهما بالإشاعة في البشر، علـى أنـه إذا أمكن رعي أحـد الفعلين في بعض الأزمـان أو بعض الأمكنة أو لبعض الأمم، ما دام لمقتضيه مساس بحاجة الناس الملحة، وجب رعيه، فإذا ضعفت الحاجة إليه رجع إلى غيره)[1].

ولمـا كان الاستقـراء في المنهـج العلمـي عمومـاً هـو الانتقال مـن تصفُّح الجزئيات والحكم عليهـا ثم الارتقاء من النظر في حالات وأحكام جزئية إلى حكـم عام يسهم في فهم الظاهـرة الكونية موضوع البحـث والاستفادة منها، فإن علماء الأصول، خاصـة أهل المقاصد منهم، قد اعتمدوه في بناء أنساقهم المختلفة، باعتباره أداة مهمة من أدوات الفكر المقاصدي في الإسلام[2].

(1) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1975، ص22.

(2) – د. أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، القاهرة، 1984.

وأهـم ما يميـز الاستقـراء كطريقة علميـة للتتبع والإحصـاء والتحقق والتفنيـد والمراجعة المستمرة، وصولاً إلى حكم عام بأعلى درجة ممكنة من التصديـق والرجحان، أنه يعين على استنبـاط فروض صائبة تتعلق بالسنن الإلهيـة المطردة التي لا تتبدل ولا تتحول في الواقع الكوني الثابت، لأنها سنن الفطـرة العاملـة في ظواهر الكون والحيـاة. فقد خلق الله هـذا الكون على أعلـى درجة من الترتيب والنظام والكمال والجمال، وحفظ تناسقه ووحدته وتوازنـه، في ترابط محكم بين عوالم الكائنـات، وتنسيق معجز بين آحادها ومجموعاتهـا. وفي إطار هذا المفهوم الإيماني لسـنن الفطرة في المخلوقات، يتمتـع الباحث المسلم بالاطمئنـان والثقة اللازمين لمواصلـة البحث العلمي والنظـر في مجموعـة محددة مـن الوقائع ليستنبـط مـن استقرائها حكماً عامّـاً منسجماً مع قوانين الفطرة السوية المستمدة من إرادة الخالق الواحد ومتوقِّفاً عليها. قال تعالى: (اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّـئُ إِلَّا بِأَهْلِـهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَـن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) (سورة فاطر: 43).

وهكـذا فإن استقراء التصرفات الشرعية مـن زواج وإرضاع، وآداب في المعاشـرة، وأحكام في حفظ النفس والأنساب والأمـوال،... يفضي إلى أنها مسايـرة للفطرة؛ إما لأنها تقيمهـا في أنفس المكلفين، وإما لأنها تحميها من الانحـراف؛ لذا لا يمكن تفقه الشرع الإسلامي إلا على أساس دقيق وواضح من الوعي العميق لمكونات الفطرة الإنسانية.

إسماعيل الحسني، الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 57، ص 45 : 82، صيف 1430هـ/2009م.

أبو إسحق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة (د.ت)، ج1 ص3.

2 ـ حفظ النسل والعِرْض وفطرية التزاوج

إن من يستقرئ تاريخ البشرية، فضلاً عن تعاليم الأديان السماوية، يدرك أن الزواج ونظام القرابة وتكوين الأسرة، وزيادة النسل وحفظ العِرْض، وعدم اختلاط الأنساب، والابتعاد عن الخيانات الزوجية، كلها قضايا مغروسة في فطرة الإنسان وكينونته، حتى عند البدائيين والوثنيين الذين لا يعتقدون في أية شريعة، نجد أن فطرتهم تنتفض بين حين وآخر، وتتجلَّى على شكل قانون، أو عادات وتقاليد، لتنظيم سلوكهم الأخلاقي وحياتهم الاجتماعية، فإن اتفاق البشر وتعاهدهم، على اختلاف مللهم ونحلهم وحضاراتهم وأديانهم وشرائعهم، على مسألة ما - دليلٌ على تأصُّل تلك المسألة في النفوس، وموافقتها للفطرة الإنسانية السليمة التي يكون عليها كل موجود أوَّل خلْقه، وتكون مهيأة لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبين الخير والشر، وبين الجمال والقبح. واهتداء الإنسان إلى فطرته التي فطره اللّه عليها فيه خير كثير يجعله يعيش في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، ولقد جاء الإسلام بشريعة واقعية توافق الفطرة النقية في كل ما أحلّت وحرّمت، وفي كل ما سنَّت من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللدولة، وللمجتمع، من ذلك تشريعات الزواج والأسرة لحفظ كرامة الإنسان وبقاء ذاته ونوعه.

إن كافة الكائنات الحية يلهمها اللّه - سبحانه وتعالى - أعمالاً هي من صميم فطرتها وغريزتها التي لا إرادة لها فيها، من ذلك فطرية التزاوج والتناسل وما يلزمهما من سلوكيات تدل على قدرة الخالق الواحد - سبحانه وتعالى - .

وإذا كان التزاوج بين أفراد الجنس البشري لم يختلف منذ بدء الخليقة من حيث الطرق المعروفة في إبداء الرغبة ولفت الانتباه بين الذكر والأنثى، فإن معظم الحيوان لا يختلف عن الإنسان في التزاوج، بل ربما تكون مظاهر الإلهام في تناسل الحيوان أقوى وأبلغ في الدلالة منها في الإنسان.

ويُعتبر طائر الروبين من أوضح الأمثلة على ما تتخذه الطيور من خطوات طويلة للتزاوج، ففي صيف السنة السابقة لبناء العش يستولي الذكر على قطعة من الأرض كبيرة المساحة في حقل أو غابة، وحين يحط عليها يأخذ في الدفاع عنها ضدّ أي حيوان أو طائر يحاول انتزاعها منه، وحين يأمن وتثبت ملكيته لها، يقبع على شجرة قريبة ويأخذ في الصياح إعلاناً منه وإشعاراً لباقي الطيور بامتلاكه الأرض، ويظل على هذا الإعلان ستة أشهر كاملة، وفي منتصف الشتاء ينقلب صياحه إلى تغريد وغناء فتنجذب إليه الأنثى التي تعيش معه في الربيع، وحينئذ يتعاونان في بناء عشّهما ثم يتلاقحان، وتضع الأنثى البيض وتحتضنه حتى يفقس. وهنا نلاحظ أن التزاوج قد سبقته مقدمات منتظمة مقصودة الغرض طوال عام تقريباً. وكافة أفراد هذا النوع من الطيور تتفق في هذه الطقوس الفطرية التي علّمها خالقها إياها مثلما علَّم غيرها في عالم الأحياء.

وهناك العديد من الأمثلة الأخرى التي تدعو إلى العجب في عالم الحيوانات البرية والبحرية، وكذلك في عالم النبات الذي تتنوع فيه طرق التلقيح والتزاوج بين أعضاء التذكير والتأنيث بواسطة الحشرات أو الرياح أو الإنسان.

إلا أنه في هذا الصدد ينبغي إدراك الفرق الرئيسي بين الإنسان وغيره من الأحياء، ففي عالم الحيوان تقوم الغريزة الفطرية بتنظيم مواسم معينة للنشاط الجنسي، حتى إذا تمت المهمة، وحملت الإناث بذور الأجيال

القادمة، صام الذكر والأنثى كلاهما عن كل محاولة جنسية صياماً ينشأ من عدم وجود الرغبة، لا من ضبطها وتقييدها بإرادة الحيوان؛ ولهذا تهتم بعض الهيئات بالمحافظة على السلالات الحيوانية المهددة بالانقراض لأسباب مختلفة.

أما الإنسان فقد تحرر من هذا الضبط والقيد، وصارت الأيام كلها عنده موسماً صالحاً لهذا النشاط الجنسي. وفي مقابل الحرية تقوم دائماً تبعة، فتلك سنة الحياة، وهذه التبعة تقتضي أن يقوم الإنسان نفسه بتنظيم مشاعره الجنسية وضبطها، بحيث تحقق أهدافها المرسومة، ولا تعود عليه بالضرر فرداً أو جماعة، وعلى قدر توفيقه في هذه المهمة يكون مدى ارتفاعه في سلم الرقي[1]، فهو قادر على ضبط نفسه عن طريق الإرادة المتحكمة في مشاعره وأعماله، وتلك مزيته التي كرمه الله بها، كما أنه قادر على اختيار ما هو خير من غيره وإيثاره على ما عداه، والإنسان لا يكون إنساناً إذا لم يعمل على ضبط نوازعه وتنظيم شهواته، وإذا لم يسلك الطريق المؤدية إلى كل ما يبعث على الرضا والاستحسان لكماله في نوعه، أو لملاءمته، أو لفائدته، أو لاتفاقه مع التشريعات الإلهية[2].

ومن حقائق الفطرة الإنسانية أن هناك تجاذباً فطريّاً بين الجنسين، لابد أن يأخذ سبيله إلى اللقاء على النحو الذي يحقق استمرار الحياة والإعمار في الأرض إلى ما شاء الله تعالى. وما دامت فطرة التجاذب بين الجنسين حتمية الحدوث، وما دام الجنسان ليسوا أفراداً معدودين،

(1) محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

(2) الاختيار في ذاته قيمة إيجابية أنعم الله بها على الإنسان للسعي إلى الجانب الخيِّر الكامن في الفطرة الإنسانية، فالخير هو الغاية العليا للأخلاق إذا ما اتصفت به الأفعال في طبيعتها. راجع مادة "خ ي ر" في المعجم الوجيز، ومادة "خير" في المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولكنهـم رجال كثير ونساء، فقـد لزم تنظيم التجـاذب بينهما لكي لا يؤدي إلى الفوضى والاضطراب، وكان الزواج تلبية ضرورية لتلك الرغبة الفطرية العميقة في نفس الفرد، ونشأت "الأسرة" بنمو اجتماعي فطريّ بحت لتكوّن "المجتمع" بادئ ذي بدء في أية صورة من صوره، وما زال الزواج والأسرة منـذ وُجـدا في مجتمع الصيد في ظلمـات التاريخ، "نظامـين طبيعيين" في بنيـة المجتمعات البشريـة يلبّيان دوافع الفطرة في اللقـاء الجنسي والرغبة في النسْـل، رغم ما يظهـر إلى جانبهما من نظم أخـرى تقوم على الإباحية والتحلـل، وتهـدد البشرية بالدمار، فالفطـرة تتأذى دائماً مـن كل شيء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه[1].

وخاصيـة النمـو، التـي تنمـي الطفـل حتـى يبلغ أشـده، وهـي خاصية بيولوجية، أي في صميـم الفطرة، هي ذاتها التي تنمي المجتمعات الصغيرة إلـى مجتمعـات كبيرة، فتنتمـي الأسرة إلـى عشيرة، والعشـيرة إلى قبيلة، والقبيلة إلى أمة،... وهكذا، وتنمِّي العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة[2]. ومن الطبيعي أن تكون التنظيمات الاجتماعية المختلفة ذات صلة وثيقة بالحضارة والثقافة.

وقد توصل علماء الأنثروبولوجيا إلـى أن النسب والمصاهرة هما أساس القرابـة بين اثنين أو أكـثر، وتحدد هذه القرابة رابطة الـدم، أو القبيلة، أو المصاهـرة الناشئة عـن الزواج، أو الرضاعـة، أو التبنـي،... إلخ. ويقصر الأنثروبولوجيـون الاجتماعيـون البريطانيـون مصطلـح "النسـب" علـى العلاقات القائمة بين أفراد ينتمون إلى أكثر من جيلين، في حين يستخدمون

(1) محمد قطب، التطور والثبات في حياة البشرية، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

(2) المرجع السابق.

مصطلـح "البنوة" على علاقـات النسب داخل "الأسرة النووية" ما بين الأب أو الأم – وأولاده[1]. وقـد ظهر علـم الأنساب بقواعده الجزئية والكلية للتعرف على أنساب الناس من أجل الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص.

وسـوف نعرض فيما يلي بإيجاز لبيـان أهمية النسب ومكانته في الأسرة وفي بعض الحضارات القديمة:

- حضارة المصريين القدماء

اعتمـد مؤرخو الحضـارة المصرية القديمة في كتابة تاريـخ هذه الحضارة علـى ما خلفته من تراث مكتوب وغير مكتوب يشمل الأهرامات والمعابد والمقابر وأوراق الـبردي واللوحات الجنائزية والتوابيـت، وغيرها، بالإضافة إلى كتابات الرحالـة اليونـان والرومان، ومـا ورد في كتابات الحضـارة المعاصرة للحضارة المصريـة القديمـة، كالحضـارة البابليـة والسومريـة والآشوريـة والفينيقيـة والآرامية، وما ورد في الكتابين السماويين (التوراة والقرآن الكريم) من إشارات إلى مواقع قديمة وأحداث تاريخية.

وكان مـن بين الوثائق المهمة التـي خلفها المصريون القدماء ما يُعرف باسم "نصوص الأنسـاب"، ويُقصد بها النصوص التـي تحكي نسب عائلة معينة. وكان الاهتمـام بتسجيل الأنساب قـد انتشر بصورة خاصة في العصور المصرية المتأخـرة. وترجع أهمية تلك النصوص إلى أنها تساعد على معرفة تتابع بعض الملـوك الذيـن عاشـت أسر أصحابهـا في عهودهم، ومـن أشهر هـذه الأنساب نسـب كاهن عاشـ في الأسرة الثانية والعشريـن، منقوش على لوحة من الحجر محفوظـة بمتحف برلين، وقد ذكـر الكاهن أسماء ستين جَـدّاً، وأمام كل منهم الملك الذي عاصره.

---

(1) مارفـن هاريـس، الأنثروبولوجيـا الثقافيـة، الترجمة العربيـة مراجعـة أ.د.السيد حامـد، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2006م.

وتشـير مصـادر أخرى إلـى أن العرش انتقـل في يسر من الأسـرة الحادية والعشريـن إلى الأسرة الثانيـة والعشرين دون إراقة دمـاء، ولعل رابطة النسب كانت الدافع لذلك الانتقال السلمي للسلطة؛ لأن "سركون" ابن شاشنق مؤسس الأسـرة الثانية والعشرين، وخليفته كان زوجـاً لابنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشريـن الذي لم ينجب ذكـراً مما جعله يقبل تزويج ابنته من ابن أقوى رجل في الدولة ليضمن العرش في نسله من الإناث[1].

وبصورة عامة، كانت النصوص المصرية القديمة تولي الزواج أهمية بالغة، وتنهى عن الزنا وتهدد مرتكبه بأعنف العقوبات؛ فالزوج الخائن يتعرض لعقوبة الجلـد، والزوجة الخائنـة تتعرض لجدع الأنـف، كما كان الزنـا أحد المبررات للطلاق عندهم دون تفرقة بين الرجل والمرأة.

ولقـد كان لعقيدة الخلود بعد الموت عنـد المصريين القدماء أكبر الأثر فيما يتعلق بالأخلاق عندهم على مستوى الفرد والمجتمع. وقد تضمن "كتاب الموتى" الذي كانت تُوضع نسخة منه مع كل ميت – عدداً من "إعلانات البراءة" تكون بمثابـة الدفاع الذي يدافع به الميت عن نفسه ويعلـن أنه طاهر مبرأ من كل إثم حتى يمكن لسيد القضاء "أوزوريس" أن يحاسبه في الآخرة[2].

ومـما جاء في هذا الدفاع: (إننـي لم أقارف الشر ولم أعتدِ، ولم أسرق، ولم أقتـل غـدراً، ولم أمس القرابين، ولم أكـذب، ولم أتدنَّـس، ولم أذبح الحيوانات المقدسـة، ولم أتلف أرضاً مزروعة، ولم أقـذف (الأعراض)، ولم أترك الغضب يخرجنـي إلى غير الحـق، ولم أزْنِ، ولم أرفض أن أسمع كلمـة العدل، ولم أسئ الظـن بالملـك ولا بأبي ولم ألـوث الماء، ولم أغش في الميـزان، ولم أمنع اللبن عن

(1) د. عبدالحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة، الخليج العربي للطباعة والنشر (د.ت).
(2) جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، الترجمة العربية، عالم المعرفة، الكويت، 1993م.

أفـواه الرضع، ولم أسد قنـاة ري على غيري، ولم أطفئ ناراً يجب أن تُشعل، ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة، إنني طاهر طاهر).

وبعـد أن ينتهي الميـت من هذا الكلام الذي يتوجه به إلـى أوزوريس، يتوجه إلى القضاة قائلاً: (... إنني آتٍ بلا خطيئة ولا سوء، وقد فعلت ما يرضي الناس والآلهـة، وأرضيت الإله بما يحبـه، وقد أعطيت خبزاً للجائـع، وماءً للعطشان، وثياباً للعاري، وزورقاً لمن ليس له مركب...).

ويلاحـظ علـى هذا الدفـاع الشامـل أنه يتضمن كثـيراً من أوجـه النشاط الإنسـاني الشامـل في مجالات مختلفة تتعلـق بالآلهة والملـك والأب والجار، ثم بالنـاس جميعاً، بل بالبيئـة الطبيعية نفسها، ثم يلاحظ كذلـك أن هذا الدفاع ليس مقصوراً على الامتناع عن بعض الرذائل، وإنمـا يضيف إلى هذا الجانب عدداً من الفضائل الإيجابية التي تدل على التعاطف مع إخوانه من بني البشر، وإذا كان كل فـرد يتخلق بهذه القيم الرفيعـة والصفات الفاضلة، فإن المحصلة النهائيـة هـي الارتقاء العام للأخـلاق السائدة في المجتمع، وقلـة نسبة المظالم والهبوط الأخلاقي[1].

- الحضارة الصينية

تقـف الحضـارة الصينيـة وحدهـا وسط حضـارات العـالم الكبرى من حيـث إنهـا قد تطـورت في عزلة تامـة، تقريباً عـن بقية الحضـارات؛ ولهذا كانـت إنجازاتهـا فريدة، فهم يتكلمون لغة لا يربطهـا صلة بأي جماعة لغوية أخـرى، وتُكتب بخط اخترعوه لا يشبه غيره، وقد قامت اللغة وطريقة كتابتها

(1) لمزيـد من التفصيل، راجع: د. عبدالحميد عبدالمنعم مدكور، دراسات في علم الأخلاق، مكتبة الشباب، القاهرة، 1990م.

وقراءتها بدور قوي في إحساس الشعب الصيني، لا بالوحدة والهوية فقط، بل كذلك بالاستمرار والتواصل، وهذه الخاصية الفريدة تكتسب أهمية خاصة في حديثنا عن مكانة النسب ونظام القرابة في الفطرة الإنسانية، مقارنة بالحضارات الأخرى القديمة، خصوصاً أن استقراء التاريخ القديم يوضح لنا أن الصين قد تطورت بنفسها، وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (في الطرف الشرقي الأقصى) من العالم الأوروبي الآسيوي القديم، تحيط بها جبال وصحراء، ولا تمر بها أيّة طرق للتجارة، وبالرغم من هذه العزلة الجغرافية، فإن التجربة الصينية استوعبت مشاعر وتطلعات الجنس البشري كله، ولكنها عبرت عنها باستمرار بطريقة صينية خاصة في ظل الديانتين القوميتين الأصليتين: الكونفوشية، والطاوية (التاوية) على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصيني، حتى بعد مواجهة التراث الأجنبي الوافد إليها. وكانت الأولى ملهمة لفلسفة الأخلاق والسلوك الاجتماعي، بينما كانت الثانية ملهمة لديانة التصوف[1].

وإذا قصرنا الحديث عن الكونفوشية، فكان مؤسسها "كونفوشوس" (551–479ق.م) هو الفيلسوف الصيني الأول الذي أنشأ مذهباً أخلاقيّاً في التنظيم العائلي والاجتماعي وما يتعلق بهما من طقوس وممارسات، ويؤكد أحد مبادئ هذا المذهب على ما أسماه "ولاء الأبناء" أو "الهسياو Hsiao" التي تعني في اللغة الصينية أصلاً ولاء الأبناء للآباء الموتى وللأسلاف، والواجبات التي ينبغي أن تُؤدى لهم كتقديم القرابين والطعام، لكن كونفوشوس كان يشدّد أيضاً على تأدية الواجب للأحياء، فقد أصبح

---

(1) جفري بارندر (محرر)، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: د. إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة: د. عبدالغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة (173)، الكويت، ذو القعدة، 1413هـ/مايو 1993م.

"ولاء الأبناء" يعني خدمة الوالدَيْن أثناء حياتهما؛ ومن ثم اكتملت علاقة الابن بأبيه، والأخ بأخيه الأصغر، وعلاقة الزوج بزوجته.

فالهسياو إذن هو فضيلة توقير العائلة واحترامها، حيث يتم أولاً، وقبل كل شيء توقير الأبوين؛ لأن الحياة نفسها متولدة عنهما، وفي غمار إظهار التوقير للوالدين، يكون من الأهمية بمكان حماية الجسم من أن يلحق به أذى؛ حيث إن الجسم من الأبوين، ومن هنا فإن حماية الجسم هي تكريم للأبوين[1]. والأكثر من ذلك أن يتم إظهار التوقير للأبوين من خلال حسن السلوك في الحياة، وإذا لم يكن بمقدور المرء أن يشرِّف اسم أبويه، فعليه على أقل تقدير، ألا يجلب لهما الخزي والعار. وهكذا فإن "هسياو" لا يتمثل في الرعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك في جلب الثراء العاطفي والروحي. ومن المهم بالقدر نفسه أن تكون أهدافهما وأغراضهما التي لم تتحقق هي نفسها، بعد موتهما، أهداف أبنائهما وأغراضهما، بل إن هذا أكثر أهمية من تقديم القرابين إلى روح الوالدَيْن الراحلَيْن.

والولاء للأسرة في فلسفة كونفوشوس يعني أن يكون المرء مهذباً وإنساناً وخيراً إلى أقصى حد، ويقول: إن ما يجعل البشر إنسانيين على نحو فريد هو "جين" Jen، أي الصفة الجوهرية للقداسة، "فالجين" نفسه عند كونفوشوس هو نموذج متعالٍ لم يبلغه سوى حكماء الماضي، إنه كيان صوفي[2]؛ ومن ثم فإن "هسياو" ليس فضيلة عائلية فقط، فهذه الفضيلة

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، مراجعة: د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (1990)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، صفر 1416هـ/1995م.

(2) لقد تعددت ترجمات كلمة "جين Jen" ومنها: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقي، الحب، الخير الإنساني، وهذه كلها قيم تشير بوضوح إلى أن "جين" هو المبدأ المطلق للفعل الإنساني، والكائن البشري الحق لا ينحرف عن طريق "الجين" أبداً، ومن ينحرف عن هذا الطريق لا يعبر عن كمال الإنسانية.

التـي تنشـأ في العائلة تؤثر في الأفعـال خارج المحيط العائلـي، وتصبح من خلال اتساع نطاقها فضيلة أخلاقية واجتماعية.

وعندمـا يتعلم الأطفال احـترام أبويهم وتوقيرهم، فـإن بمقدورهم أن يحبـوا إخوتهم وأن يحترموهـم، وعندما يحققون ذلك، فـإن بإمكانهم أن يحبـوا الإنسانية بأسرها، وأن يحترموها، وعندمـا يوجِّه حبُّ الإنسانية كل الأفعـال فإنهم يتصرفون وفقاً لإنسانيتهـم، أو وفقاً "للجين Jen"، وهكذا فـإن بدايـات "جين" إنمـا توجـد في ولاء الأبنـاء "هسيـاو"، وإن العائلة تشكل في فلسفة كونفوشوس البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، ففي العائلة يتعلـم الطفـل احـترام الآخرين وحبهم، حيـث يأتـي الآبـاء أولاً، فالإخوة والأخـوات والأقارب، ثـم باتساع النطـاق التدريجي، الإنسانيـة كافة، وقد قال "توتسو Tutzu" أحـد أتباع كونفوشوس: (إن الولاء البنوي "هسياو" والاحترام الأخوي هما جذر الإنسانية)[1].

- حضارة وادي الرافدين

كان الزواج عند السومريين يحظى بأهمية بالغة، وكانت الخيانة الزوجية عندهـم جريمة يعاقـب عليها القانـون، فالزانيان إن أُخـذا بالجرم المشهود يُوثقـان ويُلقيـان في الماء، وإن لم يكـن بالجرم المشهود فيمكـن للمرأة تبرئة نفسهـا بالقسم، ولم يختلـف الأمر كثيراً عند الآشوريـين، فالخيانة الزوجية عندهم عقابها الموت غرقاً، أو جلْد الفاعليْن أو نتف شعرهما أو قطع آذانهما، وكانوا يدعون لزيادة النسل واعتبار الإجهاض جريمة خطيرة عقابها الإعدام. واعتبروا الضرب المفضي إلى الإجهاض جريمة عقابها الجلد خمسين جلدة،

---

(1) راجع: جون كولر، الفكر الشرقي القديم، مرجع سابق.

وتشغيل مرتكبها بأعمال السخرة، وقد تصل العقوبة في بعض الحالات إلى حد الإعدام، أما البابليون فقد خصصوا أكثر من (60) حكماً يتعلق بصيانة العائلة، والتشديد على الحد من وقوع الزنا وتنفيذ عقوبة الغرق لمرتكبه.

وفي أواخر الألف سنة الثالثة، أو في بكور الألف الثانية قبل الميلاد، نجد حمورابي أعظم ملوك الأسرة البابلية الأولى قد وضع نظاماً إدارياً لإمبراطوريته، وكان أهم أثر تذكاري لحكمه هو مدونة القوانين التي كشف عنها علماء الآثار الفرنسيون في "سوس" في السنوات الأولى من القرن العشرين الميلادي، وكشف أيضاً عن أجزاء منها في مكتبة آشور بني بال في نينوى، وقد ترجمها القس س.هـ.و. جونس C.H.W.Johns، وهي تمثل تقدماً عظيماً بالقياس إلى ما جرت عليه العادات في المجتمعات الأولى. وكان من بين ما تضمنته "شريعة حمورابي": هذه أحكام الاستقامة في الزواج والتبني والإرث والمسؤولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال. وقد ربط بعض الباحثين بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية، وأشاروا إلى امتداد تأثيرها في العهد المسيحي[1].

(1) و.ج.دي بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة: زكي سوس، مراجعة: د. يحيى الخشاب، د. صقر خفاجة، دار الكرنك، القاهرة، 1965م.

3 ـ حفظ النفس والعقل والبدن (الصحة) بالطب والعلاج

يُعـرَّف الطب بأنـه علم يُعْرَف منـه أحوال بدن الإنسـان ونفسه من جهة مـا يصحّ ويزول، لتُحفظ الصحـةُ حاصلةً وتُستردَّ زائلـة. ويقول ابن خلدون في مقدمتـه: (صناعة الطب تنظر في بـدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفـظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية). والأصل في الطـب هو التخفيـف عن آلام الناسـ الجسمية، وكُربهـم النفسية. والصحة ضرورية لإنسان الاستخلاف المكلَّف بعمارة الأرض وترقية الحياة عليها حتى يستكمـل حكمة الله من خلْقه وخلقها. قال تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) (سورة هود: 61).

ومفهوم الصحة، باعتبارهـا من مقومات أداء الفروض التعبدية، وأداء أمانـة الاستخلاف في الإعمار الحضاري، ينقـل موضوع الصحة من دائرة ضيقـة تشمل الطبيب والمريض إلـى النظرة الشموليـة الواسعة التي تربط العقيـدة بالشريعـة، بالنشاط الإنسـاني، بصحة الفـرد، وبإصحاح البيئة والمحافظـة عليهـا وإصلاحها؛ ومـن ثم فإن الطـب، باعتباره علمـاً نافعاً، يهـدف إلى صحة النفس والعقـل والبدن التي تعين على توفير كافة المقاصد الرئيسية للشريعة كما يراها الفقهاء.

ويحتـل الطـب الوقائي في عصرنا منزلة مهمة بين فـروع العلوم الطبية وكان أطبـاء المسلمين الأوائل يطلقون عليه "حفـظ الصحة"، وقدَّموه على إعادتها فقالوا: إن حرز الشيء الموجود أجلُّ من طلب الشيء المفقود، وعرف ابن أبـي أصيبعة الصناعة الطبية بأنها (حافظـة للصحة الموجودة، ورادَّة للصحـة المفقـودة) ويعتبر كتاب أبي زيد البلخي في القـرن الثالث الهجري

بعنـوان "مصالـح الأبدان والأنفـس" من أوائـل المؤلفات الطبيـة العربية التـي أفردت "حفـظ الصحة" في مصنف خاص، فهو يبحث في موضوعات حفـظ صحـة البـدن وحفـظ صحـة النفس، أمـا إعـادة الصحـة – فيما يقول البلخي – فإنها داخلة في صناعة المداواة (أي الطب العلاجي)[1].

وقـد كان لتوجيهـات الإسـلام وتعاليمه الأثـر البالـغ في العناية بحفظ الصحـة، سواء فيما فرضـ من فروض الصلاة والـزكاة والصيام والحج، أو فيمـا أمر من تحميل المسؤولية عن البدن، والحث على التداوي، والتوجيه إلى النظافة الشخصية والعامة، وإلى الحفاظ على البيئة، واختيار الأطعمة النافعة، وعدم الإسراف في الطعام، والوقاية من الأمراض.

ومـن الإعجـاز الإلهي في خلـق الإنسـان أن زوّده بجهـاز مناعي لحفظ النفس: قال تعالى: (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (سورة الطارق: 4).

وقـد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من سـورة الطارق أن كل نفس عليها مـن الله حافظ يحرسها من الآفات، وهـي تعطينا معاني عديدة، منها أن تكون هـذه الحراسة عن طريق عضو يحفظ باقي أعضـاء الجسد ويحذر النفس من أي خطر داهم أو أذى متوقع، على نحو ما تفعل العين عن طريق النظر، أو الأذن عـن طريق السمـع، أو ما يفعل اللسـان عن طريق التـذوق، أو الأنف عن طريق الشم، أو الجِلد عن طريق الإحساس، أو غير ذلك من مختلف أعضاء الجسم.

ويقـدم لنا العلم الحديث معنى جديـداً يخدم تفسير هذه الآية الكريمة مـن خلال ما يُعـرف في علم الطـب باسم "الجهـاز المناعـي" الذي يقوم بـدور المقاومة والمناعة. ويقسم العلماء المناعة إلـى نوعين رئيسيين: أوّلهما

(1) راجـع: د. أحمـد فؤاد باشـا، الإعمار الحضـاري فريضة إسلاميـة، مكتبة الإمام البخـاري، القاهرة، 2011م.

هـــي المناعة الطبيعية؛ أي الموروثــة التي تولد مع الإنســان، وثانيهما المناعة المكتسبة، أي التي تُكتسب أثناء حياة الإنسان.

أمــا المناعــة الطبيعية الموروثة فهــي بمثابة الخط الدفاعــي الأول الذي يواجــه أي ميكــروب يجــد طريقــه إلى جســم الإنســان. وتتم هــذه المناعة الطبيعية الموروثة بعدة وسائل أهمها:

– الأسطــح المغطيــة للجســم، مثل الجلــد والأغشية المخاطيــة، وهي لا تمثــل مانعاً أو حاجــزاً فقط، بل توجد في إفرازاتها بعضــ المواد التي تقاوم البكتيريا.

– الخلايا الملتهمة، وهي نوع من كرات الدم البيضاء، توجد في الدم وفي بعض الأنسجة، وتلتهم البكتيريا وتتغلب عليها وتبطل مفعولها.

– البكتيريــا الطبيعية، وهي التي توجــد في الظروف الطبيعية في أماكن متعــددة من جســم الإنسان، مثل الفم والحلق والأمعــاء وعلى الجلد. وهذه البكتيريــا لا تسبــب أمراضاً، ولكنهــا بوجودها وتكاثرهــا في مكانها المعيَّن تفوِّت الفرصة على أية بكتيريا دخيلة ضارة في التكاثر والنمو.

هــذا بالإضافة إلى وجــود مواد خاصة في الأنسجــة وسوائل الجسم لها تأثير قاتل على البكتيريا.

وأما المناعة المكتسبة التي يكتسبها الإنسان أثناء حياته فتتم أيضاً بعدة وسائل منها:

– الأجسام المضادة التي تفرزها بعض خلايا الجسم في الدم، وهي عدة أنواع يختص كل منها بمقاومة نوع معين من البكتيريا وسمومها.

– نشاطات بعض أنواع الخلايا بجسم الإنسان مثل الخلايا الليمفاوية.

- الخلايا الملتهبة التي تكسب الإنسان مناعة ضد ميكروبات معينة، وتنشأ المناعة المكتسبة نتيجة لدخول مسبب في الجسم يسمى "أنتيجن" وهذا بدوره ينتج عن وجود إثارة لمراكز الدفاع بالجسم تدفعها لإنتاج أجسام مضادة في صورة بكتيريا أو سموم بكتيرية أو مادة بروتينية.

- وهناك نوع من المناعة المكتسبة يستمده الجنين من أمه أثناء حياته داخل الرحم. فهي تمده ببعض ما عندها من الأجسام المضادة لأمراض قد تكون تعرضت لها من قبل؛ ولذا فإن الطفل يكون محصناً ضد أغلب الأمراض المُعْدية في الشهور الستة الأولى من عمره.

وهكذا لكي تجد الميكروبات الضارة طريقها إلى الجسم عليها أن تنفذ من خطوط دفاع المناعة الطبيعية والمكتسبة، وهذه مهمة صعبة تتوقف على قوة الميكروبات ومقاومة الجسم. فقد يكون بإمكان الجهاز المناعي أن يحاصر الميكروبات المهاجمة عند نقطة ويدمرها نهائيّاً، وإذا ما استطاعت هذه الميكروبات أن تتوغل داخل الجسم فإن العقد الليمفاوية تحاول أسرها قبل وصولها إلى الدم بحيث يتم التغلب عليها، أو تسبب التهاباً موضعيّاً في العقد الليمفاوية. وفي حالة ضعف المقاومة قد تنجح الميكروبات في الوصول إلى الدم، وغالباً يتم التهامها بواسطة الخلايا الملتهمة وتدميرها نهائيّاً دون ظهور لأعراض المرض على الجسم.

أما إذا كانت الميكروبات شديدة الضرورة، وكانت مقاومة الجهاز المناعي للجسم ضعيفة، فإن الغلبة تكون للميكروبات وينشأ المرض الذي تظهر أعراضه وآثاره على الجسم.

وهكذا نجد أن الجهاز المناعي بشقيّه الطبيعي والمكتسب يعتبر من أهم العوامل التي هيأها الله - سبحانه وتعالى - للحفاظ على النفس والبدن.

4 ـ حفظ المال بحسن التعامل مع البيئة وثرواتها

لقـد خلـق الله – سبحانه وتعالـى – الإنسان ليعيش علـى كوكب الأرض بـين جنبات ثلاث منظومات متباينة، تتفاعل وتترابط مع بعضها البعض في شبكـة من التدخلات بالغة التعقيد، هي التـي تضم كل ثرواته وموارده التي بهـا تتحد جودة حياتـه: المنظومة الأولى هي النطـاق الأحيائي الذي يشمل الطبقـات السفلى من الغلاف الجوي، والطبقـات العليا من الغلاف المائي، والطبقات السطحية من الغلاف اليابس، وهي منظومة كونية تسبح في فلك لا دخـل للإنسان في تسيير مُجْرياته إلا في أُطر محـدودة للغاية، والمنظومة الثانية هي النطاق الاجتماعي الـذي يتضمن مجموعات النظم الاجتماعية والسياسيـة والثقافية والإدارية التي تحدد علاقاته مع غيره من بني جنسه، أمـا المنظومـة الثالثـة فهي النطـاق التقني الـذي يتألف من كل مـا يشيده الإنسان في إطار النطاق الأحيائي ويقع تحت إدارته وتحكمه بدرجة كبيرة.

ومن البيِّن بذاته أن حفـظ الوجود الإنساني متوقف على استمرار وجود تلـك الأنظمـة الثلاثـة في تسـاوق وانسجام مـع بعضها البعـض، والإنسان مطالـب بـأن يحافظ على هذا التـوازن لصالـح الحياة والأحيـاء، دون أن يجـور على حق الأجيال القادمـة، أو أن يفطن إلى آثار انشغاله الزائد بثورة العلـم والتكنولوجيا... من هنا فإن منطق التقويم في علاقة الإنسان بالبيئة (الكون) يعتبر الأساس العقدي لشرح الوجود في التصور الإسلامي، وكذلك الأساس العقدي للغاية من الوجود الإنساني. فمن هذين الأساسين تحددت علاقـة الإنسان بالبيئة ومنزلتـه في الكون، وتعددت جوانـب النشاط الذي يقـوم به في بيئته تحقيقاً لصالح الفرد والجماعة والأجيال المقبلة، وحفاظاً علـى الموارد الطبيعية التي هي عصب الحيـاة، وامتثالاً للقيم الإيمانية التي تشكل محوراً مهمّاً في حياة البشر.

لكن ممارسات بني الإنسان على الأرض تسهم في الإخلال بالتوازن البيئي الطبيعي الذي أوجده الخالق - سبحانه وتعالى - لمصلحة الحياة والأحياء.

وقد أدى هذا الإخلال إلى حدوث تغيرات غير طبيعية في المعدلات البيولوجية أو الكيميائية أو الإشعاعية، وهي التغيرات التي تُوصف بما يُسمى "التلوث البيئي" للإنسان ومحيطه الحيوي، ومتضمناً الهواء والماء والغذاء والتراب والحيوان والنبات، وقد زاد من حدة هذه التغيرات خلال العقود القليلة الماضية انفجار ثورة صناعية وتقنية عارمة واكبتها برامج تصنيع ثقيلة، وتوسعات هائلة في التنقيب واستخلاص الخامات الطبيعية، بالإضافة إلى تنويع مصادر الطاقة، واستخدام المخصبات الكيميائية للتوسع في الإنتاج الزراعي، واستخدام المبيدات لمقاومة الآفات والحشرات، وفي غمرة التنافس المحموم لتطوير الصناعات والتقنيات الحديثة؛ لم يفطن الإنسان إلى ما يسفر عنه هذا النشاط من تدمير لمقومات بيئته التي تدعم مقومات حياته، حيث واكبت النهضة التقنية زيادة مطردة في تركيز الملوثات بأنواعها المختلفة في المحيط الحيوي للأرض، فضلاً عن نضوب الكثير من الثروات والموارد الطبيعية.

وبطبيعة الحال لم يكن الإنسان بمعزل عن كل هذا، حيث تراكمت آثار التلوث في الجسم بمرور الزمن حتى بلغت في بعض الأعضاء الحساسة عند كثيرين درجة اختل معها الاتزان الطبيعي لمسيرة العمليات البيولوجية داخل أنسجة الجسم وخلاياه، وأصابت الأضرار المادة الوراثية الخلوية التي تتحكم في أنشطة الجسم الحيوية، وتمتد فاعليتها في حالة الأمشاج التناسلية للتحكم في مسار تكوين الأجيال المتعاقبة، مما قد يعرضها

لأمراض وراثية متنوعة مثل التشوهات الخِلْقية والأورام الخبيثة وغيرها.

وإذا كانت مؤتمرات قمة الأرض قد عُقدت بمبادرة العديد من الدول الصناعية المتقدمة، ومشاركة كل دول العالم، لوضع الضوابط التي تكفل الحد من مخاطر التلوث وفرض رقابة صارمة على تنفيذها، إلا أن العديد من الدول النامية ما زالت تبدي عدم الاكتراث في هذا الشأن، برغم ما تعكسه الإحصاءات الصحية من تصاعد متسارع في الإصابة ببعض الأمراض الكبدية والرئوية والكلوية والدموية، إلى جانب الزيادة المطردة في معدلات الإصابة بالأورام السرطانية.

وقد دعت ضرورة التعامل مع هذه الأخطار البيئية إلى استخدام آلية تعرف باسم "تقييم الأثر البيئي"، تطرح فيها البدائل لاختيار أقلها ضرراً، وهذه الآلية الحديثة لها سند في الشريعة الإسلامية الغراء بأصولها الكلية الدقيقة التي يمكننا أن نتخذها نبراساً يعصمنا من الخطأ إذا حالفنا الصواب في تطبيقها، وذلك من قبيل قول الفقهاء: (إن الأصل في الأمور الإباحة ما لم يكن هناك حكم شرعي قاطع بعكس ذلك)، وهذا يفتح لنا أبواب الإفادة المشروعة من كل جديد ينفع البشر أفراداً أو جماعات، فالأصل في الإسلام هو مراعاة مصالح الناس، ودفع الضرر عنهم، والحفاظ على البيئة، وصون مواردها، والتعامل معها تعاملاً رشيداً؛ حيث لا ضرر ولا ضرار، فالتخطيط للمشروعات ينبغي أن يعمل على استقامة المصالح والتوفيق بينها، اعتماداً على دراسة ووضع خيارات يتم الترجيح بينها، فالقاعدة الشرعية توضح أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطيل المفاسد وتذليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين من احتمال أدناهما، ومن قواعد

المفاضلة بين المصالح والمفاسد ترجيح المصلحة الأعلى على المصلحة الأدنى، واختيار أخف الضررين، والضرورة بقدرها، ودرّء المفاسد أولى من جلب المنافع، والضرورات تبيح المحظورات.

ومثل هذه القواعد تضع الأسس اللازمة للنظر في مشروعات التنمية، حيث تنبغي دراسة السلبيات والإيجابيات عند التخطيط لأي مشروع، وموازنة الأمر للأخذ بجانب درء المفاسد، وفي جميع الأحوال تكون مصالح الأمة مقدمة على المصالح الخاصة للأفراد عند التعارض، وهو ما تقصده القاعدة الكلية الشرعية: (تقديم حفظ الكلي على الجزئي) وترجيح المصالح العامة على المصالح الخاصة، ومن هنا وُضعت القاعدة الشرعية: (يُتحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام).

وإذا أخذنا هنا ثروة المياه، على سبيل المثال، بوصفها نعمة عظيمة لابد من المحافظة عليها كي لا تزول، فإن تعاليم الشريعة الإسلامية تأمرنا بالمحافظة عليها طاهرة نقية، وتنهانا عن الإسراف في استخدامها، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف : 31)، وجاء في الحديث الشريف: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه) (رواه مسلم)، فمثل هذه الأعمال والتصرفات تسبب الأمراض الوبائية والمتوطنة، وتساعد على انتشارها، والنهي عنها ينسحب على جميع الملوثات الأخرى التي تضر بصحة الإنسان والحيوان وبقية المخلوقات.

وفي السنّة النبوية المطهرة أيضاً ينهى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن الإسراف في استعمال الماء، حتى ولو كان من أجل الوضوء، فقد رُوي عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ،

فقــال: (ما هذا الإسراف؟) فقال: أفي الوضوء إســراف؟ قال: (نعم وإن كنت على نهر جــار)، وفي الحديث الذي (أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي) أن أعرابيّاً جاء إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، وقال: (هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء، وتعدى وظلم).

بــل إنه صح أنه توضأ صلى اللّه عليــه وسلم مرة مرة، (رواه البخاري) من حديــث ابن عباســ قال: توضأ النبــي، صلى اللّه عليه وسلم، مــرة مرة، وصح أيضــاً عنه صلى اللّه عليــه وسلم أنه توضأ مرتين مرتــين، (أخرجه البخاري) من حديث عبداللّه بن زيد أن النبي صلى اللّه عليه وسلم توضأ مرتين مرتين.

ولعــل في هذا ما يشجع على الاجتهاد في فقه المياه بتطبيقاته الواسعة؛ لكي يــؤدي دوره في تحقيــق الأمــن المائي للأمــة العربية والإسلاميــة، خصوصاً أن الإحصــاءات تشير إلى أن المسلمين يستهلكون يوميّــاً أكثر من (32) مليار لتر من الماء في الوضوء؛ مما أدى بالبعض إلى تصميم ماكينات وضوء للاستخدام في المساجد، واستخدام صنابير آلية لترشيد استهلاك المياه.

ويؤكــد كثير من العلماء والخبراء أن حاجة ســكان الكوكب إلى المياه سوف تتضاعــف خــلال العقود القليلة القادمــة، وعندها يصبح المــاء لا البترول، هو المــورد الأول الذي يتحكم بمصائر العباد في شتى البلاد، وعلى مستوى المنطقة العربية والإسلامية فإنها تعاني حاليّاً نقصاً في الموارد المائية؛ مما يتطلب قيام تعــاون إقليمي يراعي حاجات الشعوب العربية والإسلامية من المياه، خصوصاً إذا مــا علمنــا أن دول الجــوار العربي تتحكم بنحو (85 %) مــن الموارد المائية العربية؛ ولهذا فإن الحاجة ماسة إلى إنشاء هيئة مائية عربية وإسلامية، يكون هدفها تطويــر إستراتيجية موحَّدة تخدم المصالــح العربية والإسلامية العليا؛ لمنع الآخرين من انتهاك الحقوق المائية للعرب والمسلمين.

5 ـ فقه الواقع المعاصر بين العلم والشريعة

إن الثـورة التي نشهدهـا الآن في مجالات المعلومـات والاتصالات والفضاء والبيولوجيـا وغيرها تؤثر تأثيراً مباشراً على النـاس في حاضرهم ومستقبلهم، بما أسفرت، وتسفر عنه من نتائج وإنجازات لم تكن تخطر على بال السابقين. ومـن فضـل الله – تعالى – علـى الإنسان أن أنـزل عليه شرائـع سماوية تتفق جميعهـا على عبادة الله – عز وجـل – وإفراده بالألوهية. كما تحث على مكارم الأخلاق وتنفّر مـن سيئاتها، برغم اختلاف الأحكام الفرعية فيها، مثل كيفية الصلاة، وكيفية الزكاة، والصيام.

ومـن فضـل الله علـى المسلمين أن جعـل أركان دينهـم العمليـة، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام بتركيز وإجمال. لكن إذا جَدَّت أمور أو ظهرت مشـكلات يكـون الرجوع إلـى أهل الذكر والاجتهـاد مطلوباً لإزالـة أي لَبْس أو غموض أو سوء فهم.

ولعل مـن أهم دلائل الواقعية في هذا الدين الحنيـف التيسير على أتباعه، ورفـع الحرج عنهم، والنزول عن المُثُـل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة. قال تعالـى وهو يحدثنا عن رخص الصيـام من الفطر للمريض والمسافر: (شَهْرُ رَمَضَـانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِـدَ مِنكُـمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَـرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيـدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُـواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُـمْ وَلَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ) (سـورة البقرة : 185)، قال سبحانـه في ختام آية الطهـارة بعـد أن رخَّص في التيمم لمن لم يجـد الماء: (يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُـمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُـمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ

جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة المائدة : 6)، وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد هذا الاتجاه القرآني وتبينه فيقول عليه الصلاة والسلام: (بُعثت بحنيفية سمحة) (رواه أحمد). ولا عجب بعد هذا الهَدْي من القرآن والسنة أن نجد الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه يسير في نفس هذا الاتجاه، ثابتاً على الأصول والكليات، مرناً متطوراً ومجتهداً في الفروع والجزئيات، خصوصاً فيما يُسمى بـ "منطقة العفو" أو "منطقة الفراغ التشريعي" التي تركتها النصوص قصداً، وتُرك لفقهاء الشريعة أن يختلفوا في تقديرها. ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصور، أية غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغيير الفتوى، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال[1]. بل إن هناك من بلغ الذروة فيما يُعرف بالفقه التقديري أو الافتراضي، أو فقه التوقع[2].

إن الثورة العلمية والتقنية التي يشهدها عصرنا والعصور القادمة أسفرت عن واقع جديد لم يخطر من قبل ببال أحد من العلماء أو الفقهاء، وأصبح المسلمون في حاجة إلى استنباط الحكم الشرعي الذي يضع حدوداً فاصلة بين الحلال والحرام في مسائل غير مسبوقة. ومن أمثلة هذه القضايا في مجال الاستنساخ ما يحدث نتيجة دمج خلية جسمية (وليس حيواناً منوياً) من فرد مع بويضة أُخذت من أنثى ثم نُزعت مادتها الوراثية قبل الإدماج لينتج "زيجوت" يُغرس في رحم أنثى لينمو ويكون جنيناً تتم ولادته. والفرد الناتج

(1) انظر: الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي.

(2) راجع أعمال ندوة "الفقه الإسلامي والمستقبل. الأصول المقاصدية وفقه التوقع"، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، 1431هـ / 2010م.

هنا تكـون صفاته الوراثية من مصدر واحد هو صاحب الخلية الجسمية فقط؛ حيـث إنه لا يحمل صفات صاحبة البويضــة أو صفات من حملته في رحمها، إن مثل هذا الاستنساخ الـذي نجحت تجاربه في بعض الحيوانات، إذا ما انسحب جدلاً على الإنسان، فإنه يثير ضمن ما يثير مخاوف عديدة منها:

- إنتـاج مجموعـات من الأفـراد المتشابهـين تماماً، مما يخلـق مشكلات اجتماعية.

- إذا نتـج طفل ذكر بالاستنساخ من زوج، وأُخذت البويضة منزوعة النواة من زوجته، فهل يرث الطفل من المرأة التي حملته في رحمها برغم أنه لا يحمل أيّاً من صفاتها الوراثية؟

- الاستنســاخ يسفر عــن طفل بلا أمٍ حقيقية، برغم أن هناك سيدة حملته في رحمها، ويسفر عن طفلة بلا أب إذا أُخذت الخلية الجسمية من أنثى.

- الاستنســاخ يعطي الفرصة كاملة للتحكـم في نوع الجنين إن كان ذكراً أو أنثــى بحسب مصدر الخليــة الجسمية، ومن الممكن أن يؤدي هذا إلى مشكلات اجتماعية خطيرة.

- الاستنســاخ يـؤدي إلى تأجير الأرحام، أو إلــى أن تبيع النساء بويضاتهن لصالح من يريد استنساخ نفسه.

- قد ينتج عن محاولات استنساخ البشر أطفال بهم تشوهات جسمية، فمن يتحمل مسؤولية ذلك؟

- مــن الناحية النظرية (الافتراضية)، مــاذا يحدث لو عمدت النساء إلى الاستنساخ باستخدام خلاياهن الجسدية فقط، وعزفن عن التزاوج الجنسي؟ هل ينقرض الرجال؟

وفي مجال الهندسة الوراثية، حيث يتم إحداث تعديل في بناء المادة الوراثية لكائن حي بقصد حذف صفة من صفاته الوراثية، أو إدخال صفة وراثية جديدة عليه، هل يجوز تطبيق هذه التقنية على الإنسان؟ وإذا جاز ذلك، ما هي الصفات التي لا يجوز فيها التعديل؟

وفي مجال الفضاء، كيف يؤدي المسلم عبادته المكلَّف بها إذا كان في حالة انعدام الوزن في محطة فضائية، أو سافر ليقيم على أحد الأقمار أو الكواكب في مجموعتنا الشمسية؟

وفي مجال الاقتصاد، أصبح حفظ المال – الذي هو من مقاصد الشريعة الإسلامية التي تهدف إلى تحقيق التوازن بين الضروريات والحاجيات والتحسينات، وصولاً إلى تحقيق التنمية المنشودة، المتوازنة والمستدامة – غير مقتصر اليوم على حماية المعادن والثروات الطبيعية، أو الثمار، أو الممتلكات، أو غيرها، من السرقة أو الاستيلاء أو الغصب، وإنما تعدى ذلك ليشمل حماية العمالة ورأس المال بالاقتصاد المعرفي، وبخاصة "اقتصاديات العلم والتقنية". فما هو موقف الشرع من اعتبار المعرفة والمعلومات مالاً؟

هذه مجرد أمثلة من واقع حياتنا المعاصرة توضح الحاجة إلى صياغة أو استنباط أحكام شرعية تتناسب مع الواقع المعيش في ظل ثورات علمية وتقنية متلاحقة.

إن هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه من صنع خالق واحد عليم حكيم ومتصف بكل صفات الجلال والكمال والقدرة، والدليل على صفات الله جل في علاه أن الأفعال المحكمة قد صحت منه ابتداء، حيث أوجد هذا العالم على أعلى درجة من الترتيب والنظام، ولا يليق بكمال الحكمة ترك أمر الكون مضطرباً بغير سنة يجري عليها، فالله – سبحانه وتعالى – له الخلق وتدبير الأمر وفق

سـنن أجراهـا (سُنَّـةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْـلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّـةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) (سورة الأحزاب: 62)، وقد سلك القرآن الكريم مسالك كثيرة في إيقاظ العقول ولفـت الأنظـار للاستدلال علـى وجود الخالـق – سبحانه وتعالـى – عن طريق التأمـل في قضية الخلق والوجـود، وما فيها من آيات لا يعقلهـا إلا أولو الألباب: (اسْتِكْبَـاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّـتَ الْأَوَّلِـينَ فَلَـن تَجِدَ لِسُنَّـتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَـن تَجِدَ لِسُنَّـتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) (سورة فاطـر: 43)، هذه هي طريقة القرآن الكريم في تأسيس اليقين الإيماني باستقراء الموجودات وملاحظة الظاهرات، والانتقال من المحسوس إلى المعقول، انتهـاء إلـى الاستـدلال المنطقي علـى وجود الخالـق الواحد المنعـم على عباده بالخلق والتدبير.

كمـا تحدث القرآن الكريم عن العناصـر التي تتألف منها المخلوقات الحية، فأشار إلى أن الماء هو الأصل: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة النور: 45)، ونبّه الإنسانَ إلى العنصر الذي خُلق منه: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِـبِ) (سورة الطارق: 5–7)، وتحدث عن الخلق الأول للإنسان وهو خلق آدم مـن تـراب، وتحدى الجاحدين أن يثبتوا أن لأحـد في هذا الكون غير الله – سبحانـه – أي أثـر في الخلق والإيجاد من عدم: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ) (سورة الطور: 35،36).

وفي عصرنا الحاضر نجد البحث العلمي في بعض المجالات يحيد عن المنهج السليم الموصِّل إلـى حقائق ونتائج يفيد منها المجتمع البشري كله، ويتخبط فيه العابثون على غير هدى، اللهم إلا انقياداً لهوى أو نزعة أشبه بنزعة الطفل الذي

يعبث بكل ما يلعب به، ويحاول تدميره غير مكترث بما يصيبه من أذى محتمل.

وكان من أحد المجالات التي أغرت العابثين بمزيد من العبث مجال الهندسة الوراثية التي أثبتت جدواها في عالم النبات والحيوان، ولكنها أتت في بعض التجارب على الإنسان بما لا يُحمد عقباه، وخير مثال على ذلك ما يحدث في عمليات الإخصاب الصناعي، عندما تكون الزوجة غير قادرة على الحمل، ويُستعان بامرأة أخرى بدلاً منها يُطلق عليها اسم "أم بديلة"؛ حيث أثار ذلك الكثير من القضايا والمشكلات الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تمس حقوق الإنسان وكرامته، فضلاً عن أنها تدنس قدسية حياته التي استحق لأجلها أن يكون خليفة الله في الأرض.

وتطورت عملية الإخصاب الصناعي بعد ذلك إلى تجارة عن طريق إنشاء "بنوك" للحيوانات المنوية، بهدف تحسين الجنس البشري، والحصول على جيل من العباقرة، لكن هذه التجارب باءت بالفشل، وأثارت التخوف من انتشار "جينات" غير معروفة ومتنحية وضارة بالجنس البشري، هذا بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يضمن أن المولود سوف يحمل صفات الوالدين نفسيهما، وبحث تجار هذه "البنوك" عن هدف شيطاني آخر، حسبوه إنسانيّاً، غير تحسين النسل، فوجدوا ضالتهم في الأسر المحرومة من الأطفال، حيث تقوم هذه "البنوك" في الوقت الحاضر بتوفير السائل المطلوب لحل مشكلة العقم عند أحد الزوجين أو كليهما، وفي أغلب الأحيان يكون المتطوع غير معروف حتى لا يكوِّن الزوجان علاقة ما معه، ولكي لا يُطالب بالطفل فيما بعد! وقد نجم عن هذا السلوك قضايا أخلاقية وقانونية واجتماعية ودينية، بالإضافة إلى تفاقم المشكلة الصحية، فالمتطوع - كما سبق القول - مجهول الهوية، وفي الغالب لا يعرفه حتى الطبيب، وكل ما يمكن الحصول عليه من معلومات هو الصفات

الخارجيــة التي تساعد في عملية الاختيار، أمــا الأمور المرتبطة بالأمراض فمن الصعــب التعرف عليها حتى لو طلب الطبيب سيرة حياة المتطوع، وإن أقصى ما يمكن معرفته هو نوع الدم وخلوه من الأمراض التناسلية، أما الأعراض الوراثية غــير الظاهرة فمن الصعب معرفتها. من ناحية أخرى، يخشى البعض أن تكون هناك صلة قربى بين المتطوع والأم دون أن يعلما، كأن يكون أباها أو أخاها، وهو أمــر وارد وممكن الحدوث، خصوصــاً أن (سائل) الشخصــ الواحد يُستخدم لتلقيح أكثر من امرأة (من ست إلى سبع نساء).

وترتبــت على كل هذا آثار خطــيرة، لكن العابثين تمــادوا في غيهم وشرعوا في تجميــد الأجنة والحيوانات المنوية لعشرات السنــين لاستخدامها في أي وقت وحســب الطلــب، وهنا تعالت تســاؤلات من نــوع جديد بسبب غيــاب الضوابط والقوانــين الصارمة التي تحكــم مسيرة البحث العلمي، وتوجهــه لما فيه صلاح المجتمــع الإنســاني وتقدمــه، فشتــان شتان بين البحــث العلمي لبحــث الأسرار الإلهيــة في عملية الخلــق والإفادة منها، والعبث بعملية الخلــق الذي لا يسفر إلا عــن ضرر بالعباد، وشتان شتــان بين تدبير العباد وتدبــير رب العباد القائل في محكم التنزيل: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) (سورة المرسلات : 23).

وهنا تتجلّــى أهمية الحاجة الماسة إلى نظرية شموليــة في مقاصد الشريعة الإسلاميــة كسيــاق اجتهــادي يُعــين علــى حــل المسائــل الفقهيــة الطارئة من مستجدات العلوم التكنولوجية، حيث لا توجد لها نصوص في الكتاب والسنة، ولا يمكن استخدام القياس في تحليلها.

المصادر والمراجع

1 – ابـن عاشور، أصـول النظام الاجتماعي في الإسلام، الدار التونسيـة للنشر، تونس، ط1، 1975، ص22.

2 – أبـو إسحـق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيـق: عبدالله دراز، دار المعرفة (د.ت)، ج1 ص3.

3 – أحمـد فـؤاد باشا، أساسيـات العلوم المعاصرة في الـتراث الإسلامي، دراسـات تأصيلية، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2007م.

4 – أحمد فؤاد باشا، الإعمار الحضاري فريضة إسلامية، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، 2011م.

5 – أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، القاهرة، 1984م.

6 – أحمـد فـؤاد باشا، إيمانيات العلم، تمهيـد لنظرية المعرفة في الإسلام، مكتبـة الإمام البخاري، القاهرة، 2013م.

7 – إسماعيل الحسني، الفكر المقاصدي وترسيخ الفكر العلمي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 57، ص 45 : 82، صيف 1430هـ/2009م.

8 – أعمـال نـدوة "الفقـه الإسلامـي والمستقبل. الأصـول المقاصدية وفقه التوقـع"، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، 1431هـ /2010م.

9 – جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، الترجمة العربية، عالم المعرفة، الكويت، 1993م.

10 – جمـال الديـن عطية، نحو تفعيل مقاصـد الشريعة، المعهد العالمي للفكـر الإسلامي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سورية، 1422هـ /2001م.

11 – جـون كولـر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسـين، مراجعة: د. إمام عبدالفتاح إمـام، سلسلـة عـالم المعرفـة (1990)، المجلس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، الكويت، صفر 1416هـ/1995م.

12 – عبدالحليم نور الدين، تاريخ وحضارة مصر القديمة، الخليج العربي للطباعة والنشر (د.ت).

13 – عبدالحميد عبدالمنعم مدكور، دراسات في علم الأخلاق، مكتبة الشباب، القاهرة، 1990م.

14 – لطف الله قاري، الإنجازات العلمية للعرب والمسلمين في القرون المتأخرة، دار الفيصل الثقافية، الرياض 1427هـ2006–م.

15 – مارفـن هاريـس، الأنثروبولوجيـا الثقافيـة، الترجمة العربيـة مراجعة أ.د. السيـد حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2006م.

16 – محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

17 – محمد قطب، التطور والثبات في حياة البشرية، دار الشروق، القاهرة 1403هـ/1983م.

18 – و. ج. دي بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة: زكي سوس، مراجعة: د. يحيى الخشاب، د. صقر خفاجة، دار الكرنك، القاهرة، 1965م.

السيرة الذاتية

د.أحمد فؤاد باشا

من مواليد 1942م ، مصر. أستاذ الفيزياء المتفرغ، والعميد الأسبق لكلية العلوم جامعة القاهرة والنائب الأسبق لرئيس جامعة القاهرة. عضو مجمع اللغة العربية، والمجمع العلمي المصري، ولجنة العلوم والحضارة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، واللجنة العليا الدائمة لحماية المخطوطات، واللجنة العلمية بدار الكتب والوثائق القومية، واللجنة الوطنية للأخلاقيات الحيوية باليونسكو، واللجنة القومية للفيزياء البحتة والتطبيقية، والمجلس النوعي للثقافة والمعرفة، واللجنة القومية لتاريخ وفلسفة العلم بالأكاديمية المصرية للعلوم والتكنولوجيا.

مؤلفاته وأعماله

الميكانيكا العامة وتطبيقاتها، موراي شبيجل 1977، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة 1983، الضوء والحياة 1995، في فقه العلم والحضارة 1997، دراسات إسلامية في الفكر العلمي 1997، رحيق العلم والإيمان 2002، كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني 2004، من الذرة إلى الكوارك، سام تريمان 2006، فلسفة الكوانتم، رولان أومنيس 2008، فلسفة العلوم الإسلامية 2013.

قائمة كتاب المجلة العربية

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
1	الإسلام والغرب حوار.. لا صراع	د. سعيد عطية أبوعالي	محرم 1418هـ/ مايو 1997م	240
2	إساءة معاملة الأطفال تلمس الأسباب والظروف	د. عبدالعزيز بن عبدالله الدخيل	صفر 1418هـ/يونية1997م	241
3	أضرار الجوال بين الحقيقة والخيال	م. عبدالله بن حمد الكثيري	ربيع الأول 1418هـ/يوليو1997م	242
4	الأسلحة الكيميائية والجرثومية خطر في وجه الحضارة	د. عبدالعزيز بن علي الخضيري	ربيع الآخر 1418هـ/أغسطس1997م	243
5	من يشتري الضحك والفرح ؟!	عبد الله الجفري	جمادى الأولى 1418هـ/سبتمبر1997م	244
6	الملك عبدالعزيز ومراسلاته	د. عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر	جمادى الآخرة 1418هـ/اكتوبر1997م	245
7	دمج المعاقين مع الأطفال الأسوياء	د. فوزية أخضر	رجب 1418هـ / نوفمبر 1997م	246
8	المؤتمر العام السادس والمجلس التنفيذي الثامن عشر للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة	عبد الرحمن محمد	شعبان 1418هـ/ديسمبر1997م	247
9	أيام العار	جون سوين/ ترجمها منصور الخريجي	رمضان 1418هـ/يناير 1998م	248
10	الإنترنت تقنيات وخدمات	د. عبدالقادر بن عبدالله الفنتوخ	شوال1418هـ/فبراير1998م	249
11	الأكل الوسطي وحكاية هرمين	د. عدنان سالم باجابر	ذوالقعدة 1418هـ/ مارس1998م	250
12	الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله	د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي	ذو الحجة1418هـ/ ابريل1998م	251
13	الماء ثروة الحاضر.. وأمل المستقبل	د. أحمد عبدالقادر المهندس	محرم 1419هـ/يونيو1998م	252
14	المتقاعدون ووقت الفراغ	عبد العزيز بن علي الغريب	صفر1419هـ/يونيو1998م	253
15	فاعلية الأغذية الوارد ذكرها في القران الكريم	د. رافده الحريري	ربيع الأول 1419هـ/يوليو1998م	254
16	القاعدة والاستثناء في الإعلام والسياسة	د.فؤاد بن عبدالسلام الفارسي	ربيع الآخر 1419هـ/أغسطس1998م	255
17	الكتابة للأطفال لماذا ... ماذا نكتب وكيف ؟	محمد سعيد المولوي	جمادى الأولى 1419هـ/ سبتمبر 1998م	256
18	مسؤولية الإعلام في تأكيد الهوية الثقافية	د. ساعد العرابي الحارثي	جمادى الآخرة 1419هـ/اكتوبر1998م	257
19	الأيام الثقافية للجامعات السعودية في رحاب الجامعات المغربية	المجلة العربية	رجب 1419هـ/نوفمبر1998م	258
20	الفياجرا شاغلة العالم !	جلال محمد حمام	شعبان1419هـ/ديسمبر1998م	259

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
21	العمل الاجتماعي التطوعي في المملكة العربية السعودية	عبد الله العلي النعيم	رمضان1419هـ/يناير 1999م	260
22	قراءة في فكر الملك عبدالعزيز	بدر بن أحمد كريم	شوال 1419هـ/فبراير1999م	261
23	الجودة ومواصفة آيزو 9000	د. إبراهيم بن علي الخضير	ذو القعدة1419هـ/ مارس1999م	262
24	أرقامنا العربية الأصيلة	د. إبراهيم احمد مسلم الحارثي	ذوالحجة 1419هـ/ابريل1999م	263
25	القلق (مرض العصر) كيف يعالجه القران ؟	د. زهير أحمد السباعي	محرم 1420هـ/مايو1999م	264
26	تعليم الفتاة بين التفرد والمحاكاة	د. علي بن مرشد بن محمد المرشد	صفر1420هـ/يونيو1999م	265
27	الشيخ ابن باز (يبكيك محراب يئن ومنبر)	المجلة العربية	ربيع الأول1420هـ/يوليو1999م	266
28	الإمارة وتنمية السياحة	الأمير خالد الفيصل	ربيع الآخر 1420هـ/ أغسطس999م	267
29	في تأهيل الأدب الإسلامي نحو رواية إسلامية	د. حلمي محمد القامود	جمادى الأولى1420هـ/سبتمبر1999م	268
30	الأدب المقارن في ضوء الرؤية العربية والإسلامية	محمود رداوي	جمادى الآخرة1420هـ/اكتوبر1999م	269
31	منظمة التجارة العالمية واستحقاقات العضوية	أ . أسامة بن جعفر فقيه	رجب 1420هـ/نوفمبر 1999م	270
32	مجلس التعاون الخليجي رؤية متابع	أحمد محمد سالم	شعبان1420هـ/ديسمبر1999م	271
33	الإسلام والغرب والدور السعودي في إقامة حوار بناء بينهما	د. عبدالعزيز بن إبراهيم السويل	رمضان1420هـ/يناير2000م	272
34	الترويح دوافعه- آثاره – ضوابطه	عبد الله بن ناصر السدحان	شوال1420هـ/فبراير 2000م	273
35	أمراض القلب والوقاية منها	أ.د. منصور محمد النزهة	ذوالقعدة1420هـ/فبراير2000م	274
36	العالم الإسلامي	محمد بن ناصر العبودي	ذو الحجة1420هـ/ابريل2000م	275
37	ضياع الهوية في الفضائيات العربية	د. عائض الردادي	محرم1421هـ/مايو2000م	276
38	البلاستيك وصحة الإنسان	د. محيي الدين عمر لبنية	صفر1421هـ/مايو2000م	277
39	منهج التربية الإسلامية في ملء أوقات الفراغ	د. عثمان سيد أحمد خليل	ربيع الأول1421هـ/يونيو2000م	278
40	المرأة كيف عاملها الإسلام	الشيخ/حسن بن عبدالله آل الشيخ	ربيع الآخر1421هـ/يوليو2000م	279
41	الفكاهة في أدب الشيخ علي الطنطاوي	أحمد علي آل مريع	جمادى الأولى1421هـ/أغسطس2000م	280

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
42	مشكلة المياه وآفاق مستقبلها في المملكة العربية السعودية	أ.د. خالد بن عبدالرحمن الحمودي	جمادى الآخرة1421هـ/سبتمبر2000م	281
43	حقوق الإنسان في الإسلام	الشيخ/صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ	رجب1421هـ/اكتوبر2000م	282
44	الجاسر علاّمة وعلامة	د. عبدالله مناع	شعبان1421هـ/نوفمبر2000م	283
45	المردود الإيجابي للتفاعل التعليمي بين المعلم وطلابه	عبدالله بن مراد العطرجي	رمضان1421هـ/ديسمبر2000م	284
46	تجربة اليونسكو: دروس الفشل	د. غازي القصيبي	شوال1421هـ/يناير2001م	285
47	الفصيح مما أضاعه المشارقة وحفظه المغاربة	حماد بن حامد السالمي	ذوالقعدة1421هـ/فبراير2001م	286
48	صفحات من حياة الفقيد العلم الزاهد الشيخ محمد بن عثيمين	أ.د.عبدالله بن محمد بن أحمد الطيار	ذوالحجة1421هـ/مارس2001م	287
49	الصناعة السعودية عام 1430هـ(2010م) رؤية مستقبلية	م. عبدالله بن يحيى المعلمي	محرم1422هـ/أبريل2001م	288
50	مشكلة العنوسة الأسباب والعلاج	رفعت محمد طاحون	صفر1422هـ/مايو2001م	289
51	الطب الشعبي حقائق وخرافات	د. حسام الدين أبو السعود	ربيع الأول1422هـ/يونيو2001م	290
52	العربية لغة الوحي .. والوحدة	محمد عبدالشافي القوصي	ربيع الآخر1422هـ/يوليو2001م	291
53	حقيقة النوم وقفات وتأملات	يوسف محمد أبو عود	جمادى الأولى1422هـ/أغسطس2001م	292
54	دور المدرسة في تربية النشء وبناء المجتمع	د. علي بن مرشد المرشد	جمادى الآخرة1422هـ/سبتمبر2001م	293
55	مشكلات طفلك الصحية في عامه الأول وحلولها	د. محمد مصطفى السمري	رجب1422هـ/أكتوبر2001م	294
56	مفهوم العمل في الإسلام	حسين بن عبدالله بانبيله	شعبان1422هـ/نوفمبر2001م	295
57	الإسلام وأزمة الإنسان المعاصر	د. محمد عبدالمنعم خفاجي	رمضان1422هـ/ديسمبر2001م	296
58	النظم العدلية الثلاثة (وزارة العدل)	أخرجه : عبدالقادر باقي زاده	شوال1422هـ/يناير2002م	297
59	الأديب عبدالكريم الجهيمان عطاء لا ينضب	محمد بن عبدالرزاق القشعمي	ذوالقعدة1422هـ/فبراير2002م	298
60	الشخصية الإسلامية سمات وتحديات	طه محمد كسبه	ذوالحجة1422هـ/مارس2002م	299
61	الشعر والأخلاق في تراث العرب النقدي	د. جعفر حسن الشكرجي	محرم1423هـ/أبريل2002م	300
62	الشورى في النظام الإسلامي ومقارنتها بالنظم الأخرى	الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير	صفر1423هـ/يونيو2002م	301

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
63	من أجل تصحيح صورة الإسلام في الغرب	د. حسن عزوزي	ربيع الأول1423هـ/يونيو2002م	302
64	مقاييس الجمال في تجربة العميان الشعرية	د. عبدالله بن أحمد الفيفي	ربيع الآخر1423هـ/يوليو2002م	303
65	تعليم اللغة الانجليزية في المملكة العربية السعودية	جاسم بن أحمد الجاسم	جمادى الأولى1423هـ/أغسطس2002م	304
66	اصطحاب المفردات كلام يدخل في التخاطب لا الخطب !!	أحمد بن عبدالرحمن العرفج	جمادى الآخرة1423هـ/سبتمبر2002م	305
67	الطب النبوي بين الإبداع الصحي والطب الوقائي	حسين محي الدين سباهي	رجب 1423هـ/أكتوبر2002م	306
68	العلاقة بين الرضا الوظيفي والأداء المهني للصحفيين	د. عبدالعزيز بن علي المقوشي	شعبان 1423هـ/نوفمبر2002م	307
69	من وسائل وأساليب التربية النبوية	د. صالح بن علي أبوعراد	رمضان1423هـ/نوفمبر2002م	308
70	من حلل الشعراء وحيلهم الفنية	حجاب بن يحيى الحازمي	شوال1423هـ/يناير2003م	309
71	الحب بين الأدب والطب	د. غالب خلايلي	ذوالقعدة1423هـ/فبراير2003م	310
72	شبهات وأباطيل حول الطلاق والرد عليها	رفعت محمد مرسي طاحون	ذوالحجة1423هـ/فبراير2003م	311
73	وقفات حول العولمة وتهيئة الموارد البشرية	أ.د.علي بن إبراهيم الحمد النملة	محرم1424هـ/مارس2003م	312
74	الأدب العربي في المملكة في عهد خادم الحرمين الشريفين	د. حسن بن فهد الهويمل	صفر1424هـ/ابريل2003م	313
75	الغذاء ودوره في تنمية الذكاء	د. نبيل سليم علي	ربيع الأول1424هـ/مايو2003م	314
76	الأديب محمد بن أحمد العقيلي لمحات من سيرته	مجاهد باعشن	ربيع الآخر1424هـ/يونيو2003م	315
77	جذور الحملة الإعلامية على الإسلام والسعودية وصراع الهويات	د. فهد العرابي الحارثي	جمادى الأولى1424هـ/يوليو2003م	316
78	أفكار في شعر الإمام الشافعي	عبدالله الجعيثن	جمادى الآخرة1424هـ/ أغسطس2003م	317
79	أهم أحداث المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها عام 1319هـ حتى 1424هـ	مساعد بن عبدالله الجنوبي	رجب1424هـ/سبتمبر2003م	318
80	أبو تراب الظاهري العالم الموسوعة أو سيبويه العصر	علوي طه الصافي	شعبان1424هـ/أكتوبر203م	319
81	وقفات مع الأستاذ عبدالله القرعاوي في ذكرياته	عبدالعزيز بن عبدالله السالم	رمضان1424هـ/نوفمبر2003م	320
82	المنهج العلمي في القران الكريم	محمد فيض الله الغامدي	شوال1424هـ/ديسمبر2003م	321
83	هل ينقرض الدبلوماسيون في حقبة العولمة؟	د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي	ذوالقعدة1424هـ/يناير2004م	322

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
84	الحوار بين الثقافات والحضارات ضرورة	إبراهيم نويري	ذوالحجة1424هـ/يناير2004م	323
85	المرأة في الفتوحات الإسلامية	عبدالله بن ناصر الحديب	محرم1425هـ/فيراير2004م	324
86	الأستاذ شيخ النقاد عبدالله عبدالجبار وماذا بعد عنه؟!	عبدالله بن عبدالرحمن الجفري	صفر1425هـ/أبريل2004م	325
87	حسن صيرفي قراءة في جغرافية إنسان	محمد الدبيسي	ربيع الأول1425هـ/مايو2004م	326
88	العبقرية وأسسها الأربعة	فهد بن عامر الأحمدي	ربيع الآخر1425هـ/يونيو2004م	327
89	الإدارة الإلكترونية وتطبقاتها أنموذج إداري جديد	د. محمد حسن مفتي	جمادى الأولى1425هـ/يوليو2004م	328
90	مواجهة الفقر المشكلة وجوانب المعالجة	أ.د. علي بن إبراهيم النملة	جمادى الآخرة1425هـ/ أغسطس2004م	329
91	مكامن الخلل في العملية التربوية	عبيد بن عبدالله السويهري	رجب1425هـ/سبتمبر2004م	330
92	التجربة المعاصرة للتنظيم الإداري بالمملكة العربية السعودية	حسن بن محمد الشيخ	شعبان1425هـ/أكتوبر2004م	331
93	الوسائل المفيدة للحياة السعيدة	الشيخ عبدالرحمن ناصر السعدي	رمضان1425هـ/نوفمبر2004م	332
94	الإعجاز الطبي في القران والسنة والجديد في علم الطب	د. حسان شمسي باشا	شوال1425هـ/ديسمبر2004م	333
95	أهمية حماية الهواء وطبقة الأوزون من أخطار التلوث	د. محمود درويش	ذوالقعدة1425هـ/يناير2005م	334
96	العمل برؤية إيمانية	علي مدني الخطيب	ذوالحجة1425هـ/فبراير2005م	335
97	منهج الجدل وآداب الحوار في الفكر الإسلامي	أ.د.بركات محمد مراد	محرم1426هـ/فبراير2005م	336
98	الأسبرين حكاية بلا نهاية	د. محيى الدين عمر لبنيه	صفر1426هـ/مارس2005م	337
99	أحمد السباعي رائد الأدب والصحافة المكية	محمد عبدالرزاق القشعمي	ربيع الأول1426هـ/أبريل2005م	338
100	إطلالة على المشهد الثقافي في المملكة العربية السعودية	حسين محمد بافقيه	ربيع آخر1426هـ/مايو2005م	339
101	ذاكرة العراق التاريخية والحضارية	علوي طه الصافي	جمادى الأولى1426هـ/يونيو2005م	340
102	أم القرى خصوصية المكان والعمران	د.م. يحيى حسن وزيري	جمادى الآخرة1426هـ/يوليو2005م	341
103	الحفاظ على البيئة من منظور إسلامي	عبدالعزيز بن سعد الدغيثر	رجب1426هـ/أغسطس2005م	342
104	الدور الأمني للمؤسسات التربوية والثقافية	أ. حجاب بن يحيى الحازمي	شعبان1426هـ/سبتمبر2005م	343

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
105	الضمانات الشرعية لحماية الأسرة في الإسلام	علي مدني رضوان الخطيب	رمضان1426هـ/أكتوبر2005م	344
106	الأدب الوجداني إبداع وفرسان	فوزي خياط	شوال1426هـ/نوفمبر2005م	345
107	الإدارة السوية وحمايتها من الضغوط الحياتية	أ.د. نبيل سليم علي	ذوالقعدة1426هـ/ديسمبر2005م	346
108	الحج :أحكام وأسرار قراءة تأملية في شعائر الحج ومناسكه	سالم بن عبدالله الشهري	ذوالحجة1426هـ/يناير2006م	347
109	جمع الجواهر في الملح والنوادر	د.عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر	محرم1427هـ/فبراير2006م	348
110	مكة المكرمة أهمية الدور والمكان	د.عمر بن يحيى محمد	صفر1427هـ/مارس2006م	349
111	الإبداع والتحديث في فكر سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد 1329/1402هـ	د. صالح بن عبدالله بن حميد	ربيع الأول1427هـ/أبريل2006م	350
112	الزمان يزور المكان	د.غازي بن عبدالرحمن القصيبي	ربيع الآخر1427هـ/مايو2006م	351
113	رثاء الزوجة في الشعر العربي الحديث	حسني سيد لبيب	جمادى الأولى1427هـ/يونيو2006م	352
114	مشاعر أب في رسائل حرّى	د، إبراهيم بن مبارك الجوير	جمادى الآخرة1427هـ/يوليو2006م	353
115	رؤية في الفساد والجريمة	سليمان بن محمد الجريش	رجب1427هـ/أغسطس2006م	354
116	الحكومة الإلكترونية دراسة للتجربة التقنية المعلوماتية في المملكة العربية السعودية	حسن بن محمد الشيخ	شعبان1427هـ/سبتمبر2006م	355
117	آفاق المناجاة في شعر الدكتور سعد بن عطيه الغامدي	علي بن محمد العمير	رمضان1427هـ/أكتوبر2006م	356
118	الفقه الإسلامي أهميته والعناية بمصادره وأهله	د،عبدالله بن عبدالمحسن التركي	شوال1427هـ/نوفمبر2006م	357
119	المستشرقون بين الوفاء والافتراء	رفعت محمد طاحون	ذوالقعدة1427هـ/ديسمبر2006م	358
120	نحو خطاب لساني نقدي عربي أصيل	فاتح زيوان	ذوالحجة1427هـ/يناير2007م	359
121	المواقع الأثرية والتراث الثقافي بالمملكة العربية السعودية	ناصر بن محمد الحميدي	محرم1428هـ/فبراير2007م	360
122	الطائفية والتفكيك بعد سقوط بغداد	د . عايض الردادي	صفر1428هـ/مارس2007م	361
123	شنين الدموع	د. عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر	ربيع الأول1428هـ/أبريل2007م	362
124	وميض من قبس الإسلام	د. رافدة بنت عمر الحريري	ربيع الآخر1428هـ/مايو2007م	363
125	الثوابت والمتغيرات في المجتمع السعودي	الأمير الدكتور فيصل بن مشعل بن سعود ابن عبدالعزيز آل سعود	جمادى الأولى1428هـ/يونيو2007م	364

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
126	هاملتون جيب وكتابة الاتجاهات الحديثة في الإسلام	زكي بن عبدالله الميلاد	جمادى الآخرة1428هـ/يوليو2007م	365
127	لمحات في التربية الإسلامية	بهاء الدين عبدالله الزهوري	رجب1428هـ/أغسطس2007م	366
128	موقع العقل في ظل التشريع	رغداء محمد زيدان	شعبان1428هـ/سبتمبر2007م	367
129	الإسلام بين العالمية والعولمة	د . خالد احمد حربي	رمضان1428هـ/أكتوبر2007م	368
130	مقدمة في الشعر الياباني	علاء الدين رمضان	شوال1428هـ/نوفمبر2007م	369
131	الترجمة رؤية في الواقع العربي	د. محمد بن عبدالله العبد اللطيف	ذوالقعدة1428هـ/ديسمبر2007م	370
132	من سجن الأسطورة إلى رحم التاريخ	د فاطمة الياس	ذوالحجة1428هـ/يناير2008م	371
133	مفهوم الشعر عند ابن سينا	علي العلوي	محرم1429هـ/يناير2008م	372
134	اغتراب الثقافة الكل عن المجتمع الكيان	د علي بن حمد الخشيبان	صفر1429هـ/فبراير2008م	373
135	الأغذية المعدلة وراثيا مالها وما عليها	د عبدالعزيز بن ابراهيم العثيمين	ربيع الأول1429هـ/مارس2008م	374
136	النحو في عصر العولمة	د. فالح بن شبيب العجمي	ربيع الآخر1429هـ/أبريل2008م	375
137	تقاليد الكرم عند العرب	محمد السموري	جمادى الأولى1429هـ/مايو2008م	376
138	الكنتية خطاب السيرة الذاتية	أحمد علي آل مريع	جمادى الآخرة1429هـ/يونيو2008م	377
139	من تراثنا الحديث في اللغة والفكر والحضارة	عبد الله العلايلي وآخرون	رجب1429هـ/يوليو 2008م	378
140	ثقافة التعليم الالكتروني	د.زكريا يحيى لال	شعبان1429هـ/أغسطس2008م	379
141	الصحافة المطبوعة في عصر الملتيميديا	د. عثمان بن محمود الصيني	رمضان1429هـ/سبتمبر2008م	380
142	التجربة الشعرية الجديدة في السعودية	د. عالي بن سرحان القرشي	شوال1429هـ/اكتوبر2008م	381
143	المصطلح الإيقاعي في التراث الأدبي / القافية نموذجا	فريد محمد أمعضشو	ذوالقعدة1429هـ/نوفمبر2008م	382
144	معركة الشعر المنثور في الصحافة السعودية قبل نصف قرن	محمد بن عبدالرزاق القشعمي	ذوالحجة1429هـ/ديسمبر2008م	383
145	رواد الغناء في الجزيرة العربية من الشفوية إلى التسجيل	أحمد الواصل	محرم 1430هـ/يناير 2009م	384
146	قراءة في الظواهر التمثيلية العربية	سامي عبداللطيف الجمعان	صفر 1430هـ/فبراير 2009م	385

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
147	الأدب في البرازيل رؤية ومختارات	د . رشا احمد إسماعيل	ربيع الأول1430هـ/مارس2009م	386
148	أدب المدونات	شاكر لعيبي	ربيع الآخر1430هـ/أبريل2009م	387
149	الثقافة الأفقية وموت النخبة	د فهد العرابي الحارثي	جمادى الأولى1430هـ/مايو2009م	388
150	رحلة الأدب العربي الحديث إلى الإنجليزية	د.موسى أحمد الحالول	جمادى الآخرة1430هـ/يونيو2009م	389
151	مترجمو ألف ليلة وليلة	سيلفانا الخوري	رجب1430هـ/يوليو 2009م	390
152	رحلة الكتاب في الحضارة الإسلامية	محمد رجب السامرائي	شعبان1430هـ/أغسطس2009م	391
153	النسبية وما بعدها (ألبرت آينشتاين ،ستيفن ،مايكل)	د.عبدالله نعمان الحاج	رمضان1430هـ/سبتمبر2009م	392
154	مذكرات أبي القاسم الشابي	د. نور الدين صمود	شوال1430هـ/اكتوبر2009م	393
155	العولمة والأدب العربي المعاصر	د.أسامة محمد البحيري	ذوالقعدة1430هـ/نوفمبر2009م	394
156	مالك بن نبي في ذاكرة عبدالسلام الهراس	د . محمد البنعيادي	ذوالحجة1430هـ/ديسمبر2009م	395
157	رحلة إلى الحجاز	إبراهيم عبدالقادر المازني	محرم 1431هـ/يناير 2010م	396
158	قصائد أعجبتنا من غازي القصيبي	غازي بن عبدالرحمن القصيبي	صفر 1431هـ/فبراير 2010م	397
159	البيروقراطية وإدارة المعرفة	د عبدالله مسفر الوقداني	ربيع الأول1431هـ/مارس2010م	398
160	النص السردي الأندلسي مداخل لقراءة جديدة	إبراهيم الحجري	ربيع الآخر1431هـ/أبريل2010م	399
161	أوراق منير العجلاني	منير العجلاني	جمادى الأولى1431هـ/مايو2010م	400
162	الألعاب في النظرية الأدبية	فارغا سلطان ترجمة عثمان الجبالي	جمادى الآخرة1431هـ/يونيو2010م	401
163	عالم الكتابة القصصية للطفل	عبد الباقي يوسف	رجب1431هـ/يوليو 2010م	402
164	أثر المرجعية الفكرية في تحليل الخطاب اللغوي	فاتح زيوان	شعبان1431هـ/أغسطس2010م	403
165	بدر الكبرى المدينة والغزوة	د. محمد عبده يماني	رمضان1431هـ/سبتمبر2010م	404
166	في الفكر الخلدوني	يوسف الحناشي	شوال1431هـ/اكتوبر2010م	405
167	ميغيل آسين بلاثيوس رائد الاستعراب الاسباني المعاصر	محمد عبدالرحمن القاضي	ذوالقعدة1431هـ/نوفمبر2010م	406

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
168	الشعر في المدينة المنورة بين القرنين 12–14هـ	د . عاصم حمدان	ذوالحجة1431هـ/ديسمبر2010م	407
169	الرواية العربية والفنون السمعية البصرية	د . حسن لشكر	محرم 1432هـ/يناير 2011م	408
170	بدايات تعليم المرأة في المملكة العربية السعودية	محمد عبدالرحمن القشعمي	صفر 1432هـ/فبراير 2011م	409
171	التحيز العربي للنقد الغربي	د.علي حمادي صديقي	ربيع الأول1432هـ/فبراير2011م	410
172	اليد واللسان	عبدالله محمد الغذامي	ربيع الآخر1432هـ/أبريل2011م	411
173	علم الحوار الاسلامي	د خالد أحمد حربي	جمادى الأولى1432هـ/مايو2011م	412
174	الموسوعات الفردية	د علي ابراهيم النملة	جمادى الآخرة1432هـ/يونيو2011م	413
175	تاريخ الهايكو الياباني	ريو يوتسويا ترجمة سعيد بوكرامي	رجب1432هـ/يونيو2011م	414
176	أدب الرحلات النبيلة	محمد منصور	شعبان1432هـ/يونيو2011م	415
177	الحطاب الافتتاحي في القران الكريم	د عبدالملك أشهبون	رمضان1432هـ/أغسطس2011م	416
178	السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم	أحمد علي آل مريع	شوال1432هـ/سبتمبر2011م	417
179	الجاحظ في مرآة أبي حيان	ابراهيم صبري راشد	ذوالقعدة1432هـ/أكتوبرر2011م	418
180	الإسلام وحقوق الانسان	زكي الميلاد	ذوالحجة1432هـ/نوفمير2011م	419
181	التراث العلمي العربي وقاماته	صلاح الشهاوي	محرم 1433هـ/ديسمبر 2011م	420
182	حساسية الوائي وذائقة المتلقي	عبدالباقي يوسف	صفر1433هـ/يناير2012م	421
183	وفيات المثقفين 2011	المجلة العربية	ربيع الأول1433هـ/فبراير2012م	422
184	الإسهام الإسلامي في التجديد الفلسفي للقرن 12م	خواكين لومبا فوينتيس	ربيع الآخر1433هـ/مارس2012م	423
185	في ثياب الاعرابي الأصمعي إمام الأنثروبولوجيا العربية	فاضل الربيعي	جمادى الأولى1433هـ/ابريل2012م	424
186	شعر الجن في التراث العربي	د. عبدالله سليم الرشيد	جمادى الآخرة1433هـ/مايو2012م	425
187	رندة الإسلامية أمنع حصون الأندلس الجنوبية	محمد القاضي	رجب1433هـ/يونيو2012م	426
188	مديح الأسئلة الصعبة ألغاز العلم المحيرة	د. عبدالله الحاج	شعبان1433هـ/يوليو2012م	427

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
189	فرق العمل العلمية في الحضارة الاسلامية	د . خالد أحمد الحربي	رمضان1433هـ/أغسطس2012م	428
190	موجز تاريخ الأدب الأمريكي	كارثرين فان سباكرن	شوال1433هـ/سبتمبر2012م	429
191	المشكلات الفلسفية عند ابن حزم والبصري وابن رشد	د. بركات محمد مراد	ذوالقعدة1433هـ/أكتوبر2012م	430
192	السيرة لعبة الكتابة	خالد فؤاد طحطح	ذوالحجة1433هـ/أكتوبر 2012م	431
193	آراء إخوان الصفا وخلان الوفا إعجاب وعجب	د. رشيد الخيون	محرم 1434هـ/ديسمبر 2012م	432
194	كتابات السياب النثرية	د . حسن الغرفي	صفر1434هـ/يناير2013م	433
195	عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم	عباس محمود العقاد	ربيع الأول1434هـ/فبراير2013م	434
196	ابن رشد وشوق المعرفة	د . بنسالم حميش	ربيع الآخر1434هـ/مارس2013م	435
197	اللغة هوية ناطقة	د . عبدالله البريدي	جمادى الأولى1434هـ/ابريل2013م	436
198	شعر الموسوسين في العصر العباسي	د.عبدالمجيد الإسداوي	جمادى الآخرة1434هـ/مايو2013م	437
199	الشعر والنثر في التراث البلاغي والنقدي	عبداللطيف الوراري	رجب1434هـ/يونيو2013م	438
200	أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب	د. عبدالهادي البياض	شعبان1434هـ/يوليو2013م	439
201	الاستشراق بين منحنيين النقد الجذري أو الإدانة	د. علي إبراهيم النملة	رمضان1434هـ/أغسطس2013م	440
202	سجع المنثور لأبي منصور الثعالبي(350–429هـ)	د. أسامة محمد البحيري	شوال1434هـ/سبتمبر2013م	441
203	العشاق الثلاثة	د. زكي مبارك (1892-1952)	ذوالقعدة1434هـ/سبتمبر2013م	442
204	أسس العلوم الحديثة في الحضارة الإسلامية	د . خالد حربي	ذو الحجة1434هـ/أكتوبر2013م	443
205	الفلسفة في فكر ابن تيمية جدل النص والتاريخ	د. أحمد محمد سالم	محرم1435هـ/نوفمبر 2013م	444
206	السينما والجذور	ترجمة خالد أقنعي	صفر1435هـ/ديسمبر2013م	445
207	الموروث الشعبي في السرد العربي	محمد عزيز العرفج	ربيع الأول1435هـ/يناير2014م	446
208	الطب والأدب علائق التاريخ والفن	د. عبدالله سليم الرشيد	ربيع الآخر1435هـ/فبراير2014م	447
209	أبو عمر أحمد بن حربون	د. عبدالله بن علي بن ثقفان	جمادى الأولى1435هـ/مارس2014م	448

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	رقم العدد
210	المرجعية والمنهج دراسة نظرية تطبيقية	د. أحمد مرزاق	جمادى الآخرة1435هـ/آبريل2014م	449
211	اللغة الشاعرة	عباس محمود العقاد	رجب1435هـ/مايو2014م	450
212	ظاهرة التداخل الشعري في المصادر العربية	د. عبدالرزاق حويزي	شعبان1435هـ/يونيو2014م	451
213	رمضان ذاكرة الزمان والمكان	محمد رجب السامرائي	رمضان1435هـ/يوليو2014م	452
214	القدس الشريف في الاستشراق اليهودي	د محمد رضوان	شوال1435هـ/أغسطس 2014م	453
215	الإبداع والنبوغ	د محمد فتحي	ذوالقعدة1435هـ/سبتمبر2014م	454
216	الرحلة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة (ج1)	أحمد محمود أبوزيد	ذو الحجة1435هـ/أكتوبر2014م	455
217	نصوص النقد الأدبي لدى حماد الراوية	د الحسين زروق	محرم 1436هـ/نوفمبر2014م	456
218	الحسن بن الهيثم ومآثره العلمية	د أحمد فؤاد باشا	صفر 1436هـ/ديسمبر2014م	457
219	النص الرقمي وإبدالات النقل المعرفي	د محمد مريتي	ربيع الأول 1436هـ/يناير2015م	458
220	المناخ والمجتمع	د عبدالهادي البياض	ربيع الآخر 1436هـ/فبرايرر2015م	459
221	الفنون الأدائية والمستقبل نحو ذاكرة الغناء السعودي	أحمد الواصل	جمادى الأولى 1436هـ/مارس2015م	460
222	الإنسان القروسطي	إبراهيم الحجري	جمادى الأخرة 1436هـ/ابريل2015م	461
223	الاسْتِغْرَاب: الْمَنْهَجُ فِي فَهْمِنا الْغَرْب	د. علي النملة	رجب 1436هـ/ مايو 2015م	462
224	فن الترسل العربي قديما وحديثا	عبدالقادر بنعبدالله /عبدالحميد أسقال	شعبان 1436هـ/يونيو 2015م	463
225	أبو الطيب المتنبي	عباس العقاد	رمضان 1436هـ/ يوليو 2015م	464
226	الخيال وشعريات المتخيل	د.محمد الديهاجي	شوال 1436هـ/ أغسطس 2015م	465
227	فن التأويل	ترجمة: محمد احمد عثمان	ذو القعدة 1436هـ/ سبتمبر 2015م	466
228	الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة (ج2)	أحمد أبو زيد	ذو الحجة1436هـ/ أكتوبر 2015م	467
229	نظرات في الشعر العربي	أحمد بن سليمان اللهيب	محرم1437هـ/ نوفمبر 2015م	468
230	عدسة التاريخ	أسامة سليمان الفليّح	صفر 1437 هـ – ديسمبر 2015	

إن ما تحدث به علماء البيولوجيا الاجتماعية عن جينات الإيمان المسـؤولة عن درجة السـمو الذاتـي روحيـاً لـدى الإنسان يدحض ما يقول بـه أصحاب التفسير الاجتماعـي من أن الدين نشأ في بادئ الأمر وثنياً؛ ثم ارتقى شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى التصـور الصحيح المتمثل بمبدأ التوحيد؛ لأن الدين – بالنسبة لنا – فطرة وليس فكرة.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا تؤصل وتؤسس لمبحث سوسـيولوجيا العلم في عصـر الازدهار الإسـلامي، وتقدم كذلك أمثلة حية للدور الذي يمكن أن يقوم به العلم الحديث والتقنية المتقدمة في خدمة الدين وفقه المقاصد الشرعية.